ود حسني

خرائط يونس

رواية

مدونة ابو عبدو

دار الساقي

تصميم الغلاف: سومر كوكبي

محمود حسني

خرائط يونس

دار الساقي

آفاق AFAC

© دار الساقي 2018
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2018

ISBN 978-614-03-2054-3

تمّ نشر هذا الكتاب بالتعاون بين

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033-6114
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

والصندوق العربي للثقافة والفنون (آفاق)
شارع سرسق، بناية شارل عون، درج مار نقولا، جميزة، بيروت، لبنان
صندوق بريد: بيروت 13-5290، لبنان
هاتف: 901-218-1-961+
email: info@arabculturefund.org
www.arabculturefund.org

فازت هذه الرواية بمنحة آفاق ضمن برنامج "آفاق لكتابة الرواية"، الدورة الثالثة، بإشراف الروائي جبور الدويهي.

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على

@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

نتوء أول

يتسلَّل منه الموت

يكفيك قلبك الذي من جُسورٍ ترتفع بأجنحة المياه؛
يكفيك قلبك المتاهُ
أيّها الموت

إنّي أحتضَر.

مُمدَّدٌ هُنا، في مجرى ضحل لنهر، يقارب كلانا الموت. لا يُمكنني التنفّس مِلء رئتيّ. تقرُّحات حمراء آخذة في التهام جلدي. ينفد كل ما أختزنه من طاقتي، كل شحم جسدي، لأبقى حيًا. فلِم لا أستسلم للموت؟ لِم أُطيل وقت الاحتضار؟ لِمَ أحاول أن أبقى حيًا؟

أشعر بدوار. أئنُّ طويلًا. ثمّة أناس واقفون على إحدى ضفتي النهر يشاهدونني دون أيّ مواساة تلوح في أعينهم. لا شيء في أعينهم الزجاجية هذه سوى مزيج خوف ونفور وفراغ أسود موحِش.

لكن الأمر كلّه كان خطئي حين سبحت نحو مياه الخليج. ثمّة خط جارف من رمال الخليج ضحل المياه، كنت أعرف أن دخولي إليه يعني أن لا خروج. أمسكت بي الرمال. تراكم الإعياء. فقدتُ وعيي في الليل. وها أنذا، مُمدَّدٌ هنا، وخيوط

النهار لا تزال نحيلة ناعسة، وأنا لا أزال أحاول الاستفاقة من الغيبوبة التي أحكمت طوقها عليّ.

الغيوم كثيفة في نهار هذا المكان. لكنّ السماء لا تمطر. الأشجار كثيفة على إحدى ضفتي النهر. لكنّ خضرتها شاحبة. وأنا في مجرى نهرٍ، تخلّت عنه المياه.

أشعر بأنني أعرف هذا المكان. أشعر بأنّ ثمّة من أعرفه في هذا المكان. لكن كيف ذلك، وأنا لم أقترب من مياه عذبة طيلة عمري؟

كيف يمكنني، أنا، من يُحتضَر، من يقترب من نهاية عيشه وتيهه، أن يشعر بأنّه يعرف مكانًا لم يأتِ إليه قط! كيف أشعر بأنّ أحدًا هنا، غريبًا لم أره يومًا، يمدُّ خيطَ وصله نحوي؟

ثمّ من أين يأتي هذا الصوت الناعم الذي يلفُّني من كلّ الأرجاء؟ من أين يأتي كلّ هذا الأنين المحمول على صوتٍ رهيف هو لامرأة حتمًا؟ وماذا تعني هذه الكلمات التي تغنّيها وتصدح بها مكرِّرة إيّاها؟ ماذا تعني "لاكريموزا... لاكريموزا... لاكريموزا"؟

كيف يمكنني، أنا، حوت أزرق، أحدب، كهل، يجتاز بوهنٍ، واستسلام للموت، أسبوعه الأول بعد تجاوزه السبعين، حوت لم يقترب يومًا من مياه عذبة، أن يلقي بنفسه إلى شَرَك مياه الخليج، من أجل شيء لا يعرف كُنْهه. كيف أُسلِّم نفسي لشيء لا أعرف منه سوى إشارات غائمة؟

ليلة الانقلاب الشتوي ونهاره
(٢١ ديسمبر/ كانون الأول)

كيف يكون المُذهِل منسيًّا
حين يتفتَّح العراء
عن الخطى التي لا تصل؟!

لم يعد لدى أحدٍ هنا لغةٌ تمكِّنه من أن يصوغ وجودَهُ أو وجودَ الأشياء مِن حوله. لم يعدْ لدى أحدٍ هنا ذاكرة يستعيد بها أيًّا من صور حياته.

والمصاب يستفحِلُ لأنّ المكان منسيّ. جزيرة في جهة الشمال من مدينة بعيدة عن العاصمة بعشر ساعات بالقطار. مع أنّ القطارات لم تعد تأتي إليها منذ أمدٍ ليس بهيّن.

جزيرة بثلاثة أضلع، الأوسع جهة الخليج المنفتح على البحر، وملاحات شاسعة أقرب لمستنقع شديد البياض تملأ الضلع الشرقي للجزيرة، ووريد نهر شرد، حتّى وصل المكان، مسجِّلًا مرور الوقت بين الجزيرة وبقيّة جسد المدينة، حتّى مصبّ عذوبته في المياه غير العميقة للخليج الدافئ أعلى شمال المدينة. وريد نهر يقف على جسده، أقصى جنوب المكان، خزان مياه تمسكه أرضا الجزيرة والمدينة.

لكنّ المشهد الهادئ للمكان أخذ يرتبك منذ ما يقارب العقد. فالجزيرة التي كانت مُمتلئة في نواحٍ كثيرة منها بأكواخ صيّادي النهر وبيوت صيّادي البحر، المشيَّدة بالطوب اللبن والخوص، أخذت تتحوَّل سنةً بعد سنة إلى مركز من يحكمون المدينة.

أراد من يقبضون على المكان أن تكون الجزيرة موضع عملهم ومسكنهم في الحين ذاته، جالبين أبناءهم وزوجاتهم، فارضين تغيُّرًا ثقيلًا على شكل الحياة الذي كانت عليه من قبل.

الأمر كلُّه بدأ حين رأى أحد المهندسين المسؤولين عن تشييد الجسور المُمسِكة بجسد المدينة أن لمكان الجزيرة خصوصية لافتة؛ ملاحظة تلقّفها رجلُ أعمالٍ، يأتي من العاصمة بطائرة خاصّة لقضاء عطلات صغيرة في بيته الكبير المطلّ على الخليج.

نُزعت الأكواخ من أجل التغييرات الجديدة: بضعة مطاعم في مواضع متفرِّقة بالضفة النهرية للجزيرة، ثمّ قاعة بعيدة عن قلب المدينة لحفلات صيفية، وأسواق كبيرة، وأبراج بواجهات زجاجيةٍ لامعة، وجسران للسيّارات، يتوازى مع كلّ منهما جسر خرساني للمُشاة، حلَّت جميعًا بدلًا من الجسور الخشبية القديمة، فأُحكِم إمساك الجزيرة بالمدينة.

طُرِدَ الصَّيّادون: "منازلكم غير آمنة. تفتقِد متطلبات السلامة"، هذا ما قيل لهم. لم تُبْنَ منازل أُخرى لهم في مواضِع منازلهم

التي انتُزِعت. أُجبِروا على نزوح فوضوي عابرين النهر، مشتَّتين في جنبات المدينة. فمال بعضهم قرب مِلح البحر، وآثر الآخر المكوث غير بعيدٍ عن عذوبة وريد النهر.

***

كانت ليلةً هادئةً، رُبَّما أكثر من المعتاد قليلًا، لكن لا شيء غريبًا في الأجواء. ليلة أتت مُتخطِّية شفقًا أحمر خضّب سماء نهار رماديّ، مُمتلئًا بالغيوم، يشوبُهُ حُزْنٌ غير معروف منبته. كان النهار الأخير في فصل الخريف، وكانت أولى ليالي الشتاء لا تزال مُتردِّدة بين الإمساك بطقس النهار الخريفي الذي سبقها، أو الميل ناحية نهار شتوي أول، تلِده في خضمّ مرور ساعاتها. نهار شتوي أول صودف أن يكون عطلة نهاية الأسبوع.

جلس يونس في غرفة نومه المُلحقة بالمكتبة الكبرى التي تحتل قلب الجزيرة. لم يمرّ على عمله في المكتبة هنا سوى شهرين. أحبّ الغرفة، بدت الأشياء من حوله متاحة بالقدر الذي يحتاج إليه: سريرٌ صغيرٌ، ومكتبٌ، ودولابٌ، وكرسيٌّ، ونافذةٌ، متناسقة في حجمها، ومع مساحة الغرفة.

أحب يونس الغرفة لأنَّ حيّز الفراغ فيها لم يكنْ كبيرًا. لم يحتج لأن يُفكِّر في شغل المكان بالأشياء. فقط أراد تثبيت رفّين لكتبه على أحد جدرانها. لا حاجة لأن يُفكّر في استبدال السرير

المتاح بآخر أكبر. هو هنا وحده. يعمل ويعيش في المكان نفسه. نهارات عمله تتشابه في إيقاع هادئ أقرب للرتابة. أمّا ليلة عطلة نهاية الأسبوع، فاعتاد أن يكسر ضجرها ببعض السير حول المكتبة بعد منتصف الليل، أو مع بداية نهار العطلة ذاته، ومن ثمّ العودة إلى غرفته بما يحتاج إليه مِن طعام.

في الماضي، قبل خمسين عامًا، كانت المكتبة قصرًا. وكانت غرفة يونس مكانًا للحرس. لكنّها قد أغلقت منذ أن تحوَّل المكان إلى مكتبة. وبعد أسبوعٍ مِن انتقال يونس من العمل في مكتبة المدينة إلى مكتبة الجزيرة؛ اقترح على أحد المسؤولين فيها أن يخصِّصوا الغُرفة له. فكان قد ضجِر من الإنهاك اليومي للسير من شقته في المدينة إلى المكتبة والعودة منها.

منذ وقتٍ طويلٍ، لم تعدْ وسائل المواصلات العامة تدخل الجزيرة. فقط تمرُّ مِن فوق جسدها، وكأنَّها مجرَّد أرضٍ يضعون عليها الحوامل الخرسانية حتى يمكن تشييد الجسور في هذا الموضع من الوجود. حدث الأمر بالتدريج: في البداية، ومع تزايد انتقال مسؤولي المدينة إلى الجزيرة، وُضعت نقاط تفتيش على مداخلها طيلة الليل والنهار. لكنّ الأمر أصبح عبئًا مُرهقًا على رجال الأمن، فاستبدلوها ببواباتٍ إلكترونيةٍ لا تُفتح إلا لقاطني الجزيرة بعد أن يتأكدوا مِن هُويّاتهم.

هذا ما استقرّت عليه الحال هنا. تزايدت الأبراج، والمطاعم، والمدارس المتعدِّدة اللغات. المدارس التي تُدرِّس كلّ اللغات إلا

لغة هذا المكان. أصبح كل شيءٍ على نسق معاصر دون أيّ دلالة على حضور الماضي، باستثناء شيئين: هذه المكتبة، وسياج مِن أشجار ضخمة مُعمِّرة، من الصنوبر والكافور والكستناء والتنوب والتوت والسرو، يتقدَّمها صفّ موازٍ لمسار النهر من أشجار البتولا، يلفُّ الجزيرة كلها.

يبدو السياج من بعيد كأنّه غابة تطوِّق المكان. عمقه ما بين ستة أمتارٍ وثمانية. غابة من أشجار كثيفة، عتيقة، موغلة في القِدم وكأنّها وُلدت مع الجزيرة ذاتها. لكنّ يونس ظلّ يشعر على نحو مُبهم بأنّ أشجار التوت هي الوحيدة التي لم تكنْ هنا منذ البدء. ظلّ يشعر بأنّ ثمّة من جلبها إلى المكان، وأنّها غريبة عن بقيّة الأشجار. ربّما نضارتها ذات الألق الأوضح وسط الأخريات، هي التي كانت تدفعه للتفكير في هذا الأمر.

كم أربكته هذه الغابة بغموضها؛ فَمِن الضفّة الأخرى، ناحية المدينة، حُجبت رؤية الجزيرة بأشجار الغابة الكثيفة. يتذكَّر يونس أنّه كثيرًا ما وقف يُطلُّ مِن نافذة شقته القديمة متأمِّلًا الأشجار في حجبها حياةً على الضفة الأُخرى لا يعرف عنها شيئًا.

في الوقت نفسه، ومِن الأبراج العالية التي تملأ الجزيرة بواجهاتها الزجاجية العاكسة، كان يمكن لكلِّ مَن يقطنها أن يُشاهد حياة المدينة، فالمنازل مُنخفِضة الارتفاع، لا تزيد عن ثلاثة أدوارٍ، حيث لا أسيجة من الأشجار. وحتى مَن يقطع

ممرّات المشي بين أشجار الغابة، أو من يجلس ليصطاد عند حافة النهر، يمكنه تتبُّع إيقاع حياةٍ بطيئةٍ رتيبةٍ لا تتغيَّر تقريبًا في أنحاء جسد المدينة.

كان يونس جالسًا في غرفته الصغيرة المُلحقة بالمكتبة، تاركًا نصف النافذة مواربًا ليسمح بالقليل من الهواء البارد بأن يبعث شيئًا مِن الحياة في الغرفة، شاردًا في مشاهدته للشمس وهي في طورها الأخير، مخضِّبةً الوجود بالشفق الأحمر. شرد مع الدم في ملئه السماء. نسي الكتاب الذي بين يديه. تذكَّر أنّه غدًا سيكمل الثالثة والثلاثين، لفته الرقم دون أن يعرف سببًا لذلك. وحين أفاق من شروده، كانت الشمس قد توارت وراء الأشجار، ليملأ الظلامُ المكان من حوله، وتملأ العتمة غرفته.

لم تسمح العتمة بأن يقرأ على ما لا يزال حاضرًا مِن بقايا ضوء خيوط نحيلة منهزمة لشمس قد ذهبت. أشعل إضاءة الغرفة. انتبه إلى حفيف الهواء البارد الذي أغفى ذهنه عن صوت مقطوعة "Air" لسيباستيان باخ. يغفي الهواء البارد ذهنه دومًا عن الإمساك الكامل بوقتٍ يطعن الشفق فيه السماء. أخذه الهواء البارد هذه المرة أيضًا عن الكتاب الذي بين يديه.

فتحه. قرأ بضعة أسطر مِن قصيدةٍ طويلةٍ، وهو مُمدَّد على أريكته الملاصقة للنافذة:

يا ابن غبارٍ يتراكم فوق تجاويف الدرع،
يا ابن حياةٍ تتجانس في ميزان الموت،
ستجلس مثل جلوس المُعتكفِ،
بين حدود غامضة، وقرابينَ،
ستنسى أنَّ بلادَكَ نازلةٌ بين الأدراجِ،
ستنسى أنَّ فرائسَكَ انطلقتْ ثانية مِن أسر الرّوحِ.

فكّر يونس في الكلمة الأخيرة من المقطع الشعري، "الروح". أمسك بدفتره الأزرق الذي يدوِّن فيه انطباعاته، سرح بذهنه لثوانٍ، ثم كتب بقلمه الحبر الأسود:

الرّوح: هذه الكلمة الأكثر تسبُّبًا بالحيرة. الكلمة الأكثر إلغازًا في اللغة. أكثر إلغازًا مِن كلمة الله ذاتها، رُبما تحتمل كلمة الله خيالاتٍ، تأويلاتٍ، وتصوّراتٍ. أمّا الرّوح؛ الروح في تقوقعها على ذاتها، أو في امتلائها بالفزع، أو الحزن، فكيف يُمكنها أن تُصوَّر، أو أن تُتخيَّل؟ كيف يُمكن أن أفهم معنى وجود شيءٍ غير محسوسٍ إلى هذا الحد؟ شيء أكثر عمقًا وقِدَمًا وتجذّرًا حتّى مِن اللغة والذاكرة الملتصقتين بنا منذ لحظة خروجنا مِن أرحام أمهاتنا.

أخذ يونس شهيقًا طويلًا ثمّ أخرجه. قرأ ما كتب مرّة أخرى.

ترك القلم والدفتر جانبًا، ثمّ أسدل جفنيه مُستسلمًا لإيقاع الموسيقى، فغفا.

***

لم يترك يونس شقّتَه القديمة مُفضِّلًا هذه الحجرة فقط لأنّ المواصلات أجهدته. فكلّ ما يتعلق بالمدينة كان يُثقِله إلى حدّ لا يُساوم عليه. لم يحتمل الحياة فيها أكثر من شهر منذ انفصاله عن عُلا. لم يستطع المرور بأيّ من الأمكنة التي تحمل ذكرى حضور المرأة التي ظلّت رفيقة عيشه لسبع سنوات. كان مكوثه في الأرجاء ذاتها التي تعيش فيها هذه المرأة، والتي كان حضورها بزخم تفاصيله يبعث دفئًا في جنبات روحه الهشّة، يأكل الآن من روحه ذاتها بلا هوادة.

كان في حاجة لأن يفكّر في سؤال التصق به من بعد أن انفصلا: "من أكون؟". سؤال فوجئ به حين وجده الجملة الأولى في "نادجا" لأندريه بريتون. والمربك على نحو أشدّ أنّه كان أول عمل يقرأه كجزء من محاولته اعتياد العيش بعد أن أصبح وحيدًا؛ لكنّه أدرك أن ليس في إمكانه الإجابة عن سؤال بريتون وهو محاصر طوال الوقت بأثر ذاكرة الأمكنة التي عاشا وتنقلا فيها معًا.

من المرّة الأولى التي رأى فيها علا في معرض لها، شعر كأنّه

أمام امرأةٍ مِن طيبة القديمة. ولا يزال رأسه يحفظ كلّ التفاصيل التي حدثَت بينهما من البداية حتى توقفا عن العيش معًا. لا يزال يتذكّر اللحظة التي شاركته فيها موضع نومه للمرة الأولى، حين تلمّس الأثير المتشبّث برائحتها التي تشبه الليل، حين تأمّلها في سيرِها الهادئِ عارية في غرفته، ونظرتِها الغائمة الملبَّدة بشيء من التيه وإيحاءٍ بمعرفة المصير. عُلا كانت المرأة التي استطاعت أن تأخذهُ مِن ذاتِه، حتى ظنَّ أنّ عيشه معها سيمتدّ حتى تغمرهما الكهولة معًا.

منذ أن انشطر كلاهما عن الآخر، لم يكن هيّنًا ما يتركه اجتراره الليلي لممارستهما للحب طوال السَّحَر. يتذكّر ما كان يغمره في هذه الأوقات من طيف الانغماس الكليّ فيها، حتّى يصل إلى أرض بئرها العميق. شعر دومًا بأنّهُ لا يزال في حاجة لأن ينغمس فيها أكثر، أن يخوض جنباتها المعتمة، التي ليس في الإمكان رؤيتها إلّا بلمسها حسّيًّا. فهذه الرّوح المتأرجحة بين الحيويّة الدافقة للعيش، والامتلاء بالميل للعزلة، جعلته يشعر دومًا بأنّ ثمّة شيئًا لا يعرف كنهه لكنّه يرغب في الوصول إليه، وتلمُّسِ موضعه فيها.

يبدو السؤال حول كيف ترك أحدهما الآخر حتميًا. ربّما يفكر المرء في أنّ سبع سنواتٍ من العيش اليومي تخلق نسيجًا لا يتمزَّق، وإن تمزّقت خيوط الشبقِ فيه. لكنّ هذه الخيوط الألِقة، الخيوط ابنة الميل الجسدي المولع بروحٍ تتنفَّسُ في هذا

الجسد، هي التي جعلتهما يتساءلان في النهاية: ما الذي سيبقى مِن عيشنا حين نرى الشَّبَقَ يتفتَّتُ، والشهوة تُردم؛ فيبهَتُ الوصل المحموم، ولا يبقى من العيش غير رداء باهت مُترهِّل؟!

كانا عاجزين أمام تفتُّتِ شبق كليهما، أمام انطفائهما في الوقت ذاته. لم يحدثْ هذا فجأةً، بل كان الأمر كترك الفخار الليّن الدافئ في العراء، مكشوفًا، في ليلةٍ باردة. فما الذي يمكن أن يحدث للجسد الطيني حينها سوى التصلُّبِ والموت؟!

***

لم ينتظر الطقس طويلًا ليغادر نعومة الخريف الغائم، الرماديّ، ويترك الشتاء، في أول نهاراته، يتسلل إلى الوجود. ثمّة أيّام تعرف من بدايتها أنّها مناسبة لأن تكون عطلة. وهكذا كان اليوم. منذ أمس ومحطة الإذاعة المحلية تخبر بأنّ حاكم المدينة سيلقي كلمة في العاشرة صباحًا من نهار العطلة. وفي مدينة حدودية نائية، لا يعرف قاطنوها أحوالها إلّا عبر هذه الإذاعة، كان ذلك شيئًا يبعث على التساؤل ورواج الاحتمالات بين الناس حول ما سيقوله الحاكم.

انتظر الناس مُنصتين للراديو. وحين جاء الموعد، لم يأتهم صوت الحاكم عبر البثّ. مرَّت ساعة ولا جديد. بدأت

الهمهمات تعلو، وازدادت الأسئلة، من دون أن يجدوا من يجيبهم بشيء.

لا أثر لحاكم المدينة. لا أثر لأحد مِن مساعديه. حتى مدير المحطة الإذاعية لم يأتِ إلى مكتبه. فهو كما يعرف عاملو الإذاعة، لن يتغيّب في يوم كهذا وإن كان مُتوعكًا.

ثمّة شيء غير معتاد من بداية اليوم. لم تخرج أيّة سيّارات مِن الجزيرة حتى بعد مرور ساعتين على موعد كلمة الحاكم. سكون مريب يلفّ الجزيرة؛ بدا كأنَّ الطيور على الأشجار هي الأُخرى لم تُغرِّدْ منذ الصباح، وأن هذه الغابة الكثيفة لم يصدر منها ولو زقزقة وحيدة رغم قرب انتصاف النهار.

لم يعرف رئيس تحرير البرنامج الإذاعي الصباحي ماذا يفعل. ليس هناك أحد ليسأله أن يتدبّر له حيلة يتعامل بها مع هذا الأمر. الجميع قَلِقون: مَن يعملون في البرنامج الصباحي، مَن يجلسون منصتين لخشخشة الراديو منتظرين كلمة الحاكم، فلا يأتيهم سوى أغانٍ وطنية وإعلانات ترويجية لمنتجات ومواعيد بث البرامج الأُخرى.

طرق مُعِدُّ البرنامج باب غرفة رئيس التحرير: "لا أحد من مساعدي الحاكم يجيب على اتصالاتنا".

حدّق رئيس التحرير في عيني المُعِدِّ لهنيهات مرّت ثقيلة، ثم صعدت الكلمات على لسانه بتردُّد: "أخبر المذيعة أن تُحضِّرَ نفْسها للظهور على الهواء بعد خمس دقائق".

أكمل وحلقه جاف: "فقط ستقول إنَّ حاكم المدينة أُصيب بتوعُّكٍ بسيط، ولن يتمكَّن مِن إلقاء كلمته اليوم".

صمتَ المُعِدُّ للحظة، مُحدِّقًا في وجه رئيسه: الرجل الأربعيني، ذي البشرة السمراء، الذي يتخلل جانبي رأسه بعض من الشعر الأبيض، ثُمَّ قال بصوتٍ مُطرق: "نعم، يبدو أن لا حلّ غير ذلك"، ثُمَّ خرج، وأغلق البابَ.

خوفٌ ما أخذ يتسرَّب إلى المدينة كلها: إلى قلوب مَن يقطنون قلب المدينة، مَن يقطنون أطرافها، مَن يتسكَّعون في طرقاتها. خوف أخذ يأكلهم بلا تمهُّل، يتملّكهم على نحو ضبابي. أسوأ خوف ذلك الذي من شيءٍ تجهله، لا تعرف ماهيته أو طبيعته، وكأنه شبحٌ لا يُعلن عن نفْسه، لكنَّهُ يُخبرُكَ بطريقةٍ ما أنَّهُ هنا، حولك، يترصّدك، يتربّص بك طوال الوقت.

***

حين كان الضحى يرسم ملامحه الشاحبة على المكان، كانت الجزيرة تغطّ في طبقات من الضباب، متراكمة بعضها فوق بعض، متماسّة على نحوٍ هشٍّ. ضباب يلفُّ غابة الأشجار، يغمر الشوارع، لافًّا كلَّ شيءٍ بها. لو كنتَ تسير في تلك اللحظة، لرأيت كيف يحتشدُ اللونُ الرمادي الناعم في أثيرِ الجزيرة، مُعلّقًا هو ذاته في وجودها، متشبِّثًا بها.

ربما لو كنتَ قطةً ترتفع عن الأرض عشرة سنتيمترات، لاستطعت أن ترى الوجود واضحًا من حولك. فقط هذا الحيّزُ الضيِّق هو المرئي، والباقي تعرف أنّه حولك، لكن لا يمكنُكَ أن تراهُ. لونٌ أبيضُ رماديٌّ يطغى على الوجود كله. ليس هناك شيءٌ غيرُه. لا يمكن لعينيك أن تريا غيره مهما كانت قوّة بصرك. وكأنَّك أُصِبْتَ بنوع غريب من العمى. عمى لا ترى فيه الأشياء مُظلمةً أو مُعتمة، بل بيضاءَ رماديّةً مغتمّة. هذا ما ينتابك حينها. لكن بعد أقلّ من ساعة من رسم الضُحى ملامحه، ينقشع الضبابُ، فتعود رؤية الأشياء مُمكنة.

يوميًّا، في السادسة صباحًا، سواء كان يوم عملٍ، أو يوم عطلةٍ، يرنُّ جرس مُنبه هاتف حاكم المدينة. في اللحظة الأولى التي يفيق فيها، كان يسند ظهرَهُ إلى ظهر سريره، جالسًا لبعض الوقت غير راغبٍ في ملاقاة أحد، قبل أن يستجمع بعضًا من جَلَدِه ويتّجه إلى مكتبه.

أمّا اليوم، فحين رنَّ مُنبّه الهاتف، في الساعة نفسها، حاول الرجل أن يعرف مصدر الصوت الذي يعلو بالتدريج بقربه. وحين انتبه إلى أنّه يأتي مِمّا بدا له علبةً مستطيلةً مقفلة بالقرب منه، فَزِعَ. لم يعرف إن كانَ عليه أن يمسك العلبة هذه أم لا. وحين تغلب على خوفه مُمسكًا بها، لم يعرفْ كيف يُغلق الصوت. فأخذ فزعه يزداد بعلوّ الصوت المُنبّه، ولم يهدأ إلّا حين توقَّف عن الرنين نهائيًا بعد مرّتين مِن التكرار.

هو الآن وحده. يحاول أن يتعرَّف إلى تفاصيل غرفته التي بدت غريبة عنه موحِشة. لم يعرف مَن هو أو أين يكون. فَقَدَ الرَّجُلُ إدراكه بوجودِه؛ أصبح دماغه دون صور، بلا مقدرة على صياغة لحظته الآنية في هيئة الجمل والكلمات. لم يعد الرجل قادرًا على معرفة أنّه مسؤول عن مدينة بأكملها.

كان دماغه يغطُّ في ضبابٍ رماديٍّ كثيف. ضباب يغمر وجوده كله. وكأنّه آدم، لحظة ما بعد الخلق، قبل أن يُعلِّمَهُ الله الأسماءَ كلها.

***

ثلاث ساعاتٍ مرّت على توقُّف جرس المُنبِّه. ثلاث ساعاتٍ مرَّت على فزع أول أصاب الرَّجُل في غرفته التي تحوّلتْ في لحظةٍ مِن مكانٍ يحمل كل دلالات الألفة إلى الانعدام الكليّ للمعنى. ثلاث ساعاتٍ قبل أن يتجدَّد الفزع مِن جديدٍ بصوت الهاتف مَرّة أُخرى. محاولاتٌ مستمرّةٌ مِن المسؤولين في المحطة الإذاعية للوصول إلى الحاكم. أمّا الرَّجُل نفْسه؛ فانكمش مُتقوقعًا على نفسه في وضع أشبه بالجنين، في أحد أركان الغرفة.

ثمّة شيءٌ غيرُ مُكتَسَبٍ لا مِن لغةٍ ولا مِن ذاكرةٍ، هو ما يجعل هذا الرَّجُل قابعًا في ركن الغرفة مُمتلئًا بالفزع. الفزع لصق الروح، مثل لحظة بكاء وصراخ الطفل التي تتبع مشقّة الولادة.

أيصرخ المرء ويبكي حينها لأنّه يولد في الأصلِ فزِعًا؟

***

من فوق الخزان، والضباب الصباحي لا يزال يتسلَّل إلى ما بين الأشجار والبنايات، مالئًا كل الفراغات الشفيفة ليحيل المكان إلى فضاء رمادي كثيف، كان هو واقفًا، عيناه شاردتان تجاه الأفق المُمتدّ حين رأى تشقُّق رمادية الأفق على تكاثفها، ظاهرًا منها ثلاث هيئات مهيبة تسبح في السماء.

لم تكن الهيئات تسبح تجاهه، هو الواقف على جسد الخزان، فوق وريد النهر، بين الجزيرة والمدينة. بل كانت تسبح آتية من وراء امتداد المدينة عابرة فوق النهر تجاه غابة أشجار الجزيرة. وبتمهّل كأنّها ناعسة، كانت الهيئات تقطع جسد السماء. وحين مرّت أمام عينيه، تلمَّس المشهد: حوتان كبيران، أحدهما يتقدّم الآخر، وصغيرهما بينهما. وهو واقف، فوق الخزان الجاف، يتتبَّع تمزيقها بلا جهد هشاشة الأفق.

أفاق يونس مِن نومه الذي تسلَّل إليه مع أول الغسق حتى طال ملتهمًا الليلَ كلَّه. أفاق في السادسة صباحًا، قام بما اعتاد فعله كلَّ يوم، ولو بتمهل أكبر لكونه يوم العطلة: حمّامٌ دافئٌ، وإفطارٌ، ثُمّ في السابعة، وقبل ساعةٍ مِن موعد عمله، كان جالسًا إلى مكتبه الذي يحتلُّ الزاوية الأقربَ لباب القاعة الكُبرى بالمكتبة.

تتشابه القاعة مع القاعات الكُبرى للقصور والكنائس القوطية. تحتل الأرفف أغلب الجدران، وفي المنتصف طاولاتٌ تتشابه في التصاميم وإن اختلفتْ في الأحجام. تحيط بالمكتبة حديقة مسوَّرة ذات أشجار كثيفة تكاد تُخفي معالم المكان للقادم من بعيد.

لا تغلق المكتبة الكبرى أبوابها حتى في العطلات. لكن عادةً ما يكون صباح العطلة كسولًا. لا في المكتبة فقط، بل في المدينة كلها. سمح هذا ليونس ببعض القراءة، وسماع الموسيقى التي يرغب فيها. انتابه شيءٌ مِن الحيرة، بأيّ موسيقى وبأيّ كتابٍ يبدأ هذا الصباح. استقرّ بعد دقائق على مقطوعة قصيرة لغوستاف مالِر. ومع بدايتها، وفي أثناء تجواله بين أرفف الكتب، وقعت عيناه على رواية "نزيف الحجر" لإبراهيم الكوني. فرغم نحولها، شعر بأنّها ظاهرة مِن أحد الأرفف البعيدة، وكأنّها اختارته ليقرأها. ابتسم وهو يمسك بها. لم تكن هذه هي المرّة الأولى التي يشعر فيها بأنّ كتابًا ما يختاره ليقرأه لا العكس.

مرَّ النهار ثقيلًا، صعدت الشمس إلى أعلى نقطةٍ لها، ثُمّ تهاوت مُرهَقةً متداعيةً. لم يأتِ أحدٌ إلى المكتبة اليوم. استغرب يونس الأمر. لكن لم يفكّر حينها كثيرًا. أغلق القاعة الكُبرى. خرج لجلب طعام الغداء، لكنّه فوجئ بالطرقات خاويةً، والسيّارات في أماكنها باردةً وكأنّها فاقدة الحياة. كانت المحالّ مُغلقة، وإشارات المرور تُضيءُ وتنطفئُ مُتغيّرة ألوانها في حديثٍ مع

العدم. لم يفهم يونس ما الذي يحدث. كانت المرة الأولى التي يرى فيها الجزيرة على هذه الحال: أقرب لجسد ميت، أو فاقد للوعي على أهون حال.

بعد ما يزيد عن نصف ساعةٍ من التجوال، دون أن يقابل أيَّ مظهر للحياة، لمح مِن بعيدٍ ما يبدو أنّه هيئة رَجُلٍ، وكأنَّ الأفق أتى به.

لم يستطع يونس التعرُّف إلى ماهية القادم. خطٌّ أسود نحيلٌ لهيئةٍ بشريةٍ، ومِن ورائه قرص الشمس ينزِل دَرَجَهُ مُنغمسًا في غابةِ الأشجار. خطا يونس تجاهَهُ، مُتشكِّكًا؛ يُفكر في احتمال أن يخبره القادم بشيء ممّا يحدث، أن يفسّر له هذا الصمت الذي أمسك بالمكان.

حين وصل إليه، وجده حافيًا، بملابس نومه، أقرب لأن يكون نصفَ سكران. لم يبدُ على الرجل أنّه لاحظ وجود شخص في المكان. وحين حاول أن يلفت انتباهه، بدت على الرجل ملامح فزع أخذ يزداد كلما سمع صوته.

حاول يونس مُناداة الرجل وهو يجري من أمامه. لكنَّها كانت تزيدُهُ هروبًا. جرى وراءَهُ، كان أسرعَ منه. أمسك به: "ما بك يا رجل؟ لماذا لا تتكلم؟"، لم يكن هناك جوابٌ، سوى محاولته أن يحجب عينيه بكفّيه، هاربًا من مواجهة عيني يونس.

أكمل: "لن أؤذيك؟ أين تسكن؟ لِمَ أنت حافي القدمين؟ هل تستطيع سماعي؟ هل يمكنك أن تجيبني؟ أنا لن أؤذيك... فقط

دعني أفهم لِم أنت على هذه الحال؟"، لم يكن من الرجل ردٌّ على هذه الأسئلة كلها، سوى فزعٍ يظهر تفاقمه في حركة جسده المُرتعِشة، في ريقٍ يسيلُ مِن فمه، وبكاء بدأ، وأخذ يعلو في نشيجٍ أشبه بنشيج الطفل.

حاول يونس تهدئته، أجلسه على الأرض، جالسًا إلى جواره. انتبه مُتشكّكًا في حاله، في خضمّ محاولات تهدئة الرجل، أنَّ من هو أمامه قريبٌ في ملامحه مِن حاكم المدينة: رجل في بدايات الستين رغم أنّه يبدو أصغر من ذلك. ذو شعر خفيف، وبشرة فاتحة.

أمسك بوجه الرجل رافعًا إيّاه لأعلى محاولًا تفحُّصه. لم يكن الذي أمامه شبيهًا لحاكم المدينة، بل هو الحاكم ذاته. وبين محاولة أن يفهم ما الذي يحدث، ومحاولة تهدئة الرَّجُل، شعر يونس بأنّ ذهنه قد تعطّل. كان مأخوذًا بوطأة اللافهم، محاولًا أن يتلمَّس أيَّ محسوسٍ وسط هذا الضباب الكثيف الثقيل الآخذ في التراكم على وعيه. وجد نفْسه ذاهلًا غيرَ قادرٍ على فهم شيء. بدا الوجود كله مُستغلِقًا أمام عقله وروحه.

مِن حوله، ابتلع الظلام ما بقي من الشفق الأحمر. سادتْ عتمةٌ شديدةٌ لدقائق، قبل أن تُضيء بعض أعمدة الإنارة. ساعد يونس الرَّجُل على النهوض عن الأرض، آخذًا إيّاه إلى المكتبة، حيث غرفته. كان يعرف الطريق جيدًا، لكنّه لم يفهم لِمَ كان يشعر بالخوف من أن تنطفئ أعمدة الإنارة، فتلتهمهما العتمة.

اليومان التاليان

لم تلمِسوا قلبًا، حتى في تشظّيه،
يواسي الأبجديّات التي لم تأتِ

تفاقم خوف يونس حتى بدا أنّه يقبضُ على أضلعِه. أرهقه الرَّجُل في الطريق إلى المكتبة. أفلتَهُ يونس حين وصلا، فهرول إلى أحد أركان الغرفة.

وضع يونس رغيفين مِن الخبز وبعض الفاكهة أمام الرجل الذي كان لا يزال في مكانِه، حافيًا، على ملابسه بعض الاتساخ. كان يتابع مُحدِّقًا ما يفعله يونس، وتحت عينيه، في مواضع الهالات، يتراكم شيءٌ مِن الفزع.

جلس يونس إلى الطاولة وسط الغرفة. ظلَّ ينظر إليه، مُراقبًا ما يفعل.

– يجب أن تأكل. حتّى لو لم ترغب في إخباري ما بك.

جفل الرَّجُل حين سمع صوت يونس.

– ما بك؟ لماذا لا تتحدث؟ ما الذي جرى لك لتكون فزعًا هكذا؟

ازداد انكماش الرَّجُل.

– كُلْ إذًا، ولنؤجِّل الحديث.

فَرَدَ يونس على الأرض غطاءين أحدهما فوق الآخر، اعتاد أن يتدثَّر بهما حين يقسو طقس الليل.

– يُمكنُكَ أن تنام هنا. ولنتحدَّث في الصباح.

وما إن مرّت ثوانٍ قليلة بعدما أطفأ يونس ضوء الغُرفة، حتّى سمع أنينًا يأتيه مِن الزاوية. أشعل الإضاءة من جديد. كان هلع مكتوم آخذٌ في الازدياد قد احتلّ نظرات الرجل.

– اهدأ، لن أطفئ الضوء.

***

على الضفة الأخرى حيث جسد المدينة، كان لا يزال هُناك بعض بنايات الإدارة المحلية التي لسببٍ غير واضح ظلَّتْ في مواضعها القديمة دون أن تتّبع سياسة الانتقال إلىً الجزيرة. كان من بينها مبنى صغير للأمن والاستخبارات، ومبنى آخر للبث الإذاعي.

منذ يوم أمس، ملأ الفزع من في المبنيين. لم تكن هذه حالهم فقط، بل حال كل من يقطن المدينة. لا أحد مِن أهل المدينة كان يفهم لِمَ تغيَّب الحاكم عن كلمته يوم أمس. غطَّ الناس في حيرة مُعتمة. كان يقين رتابة العيش يفلت من قلب المدينة. اليقين بأنَّ الغد مثل اليوم، وأنَّ الشمس لن تُشرق على شيءٍ جديدٍ حقًّا،

وأنّهم ليسوا في حاجةٍ سوى لشيءٍ واحدٍ فقط: أن يدفعوا الأيّام واحدًا تلو الآخر حتّى تنتهي حيواتهم هنا، في هذا الموضع من الوجود.

في مبنى الاستخبارات الصغير، كان أكبر مسؤولي المكان يجلس في مكتبه بخوفٍ وقلقٍ لم يختبرهما من قبل. كان يُحاول الاتصال بأيّ من المسؤولين في الجزيرة لكن دون جدوى. لا أحد يردُّ، حرارة الهواتف تضرب متقطّعة، تتواصل في الأسلاك نحاسية القلب بلاستيكية الغطاء، بلا نهايةٍ، وكأنّها تطرق بابًا لآخر، لم يعد هناك.

"يجب علينا المحافظة على إيقاع عمل المصالح اليومية، والمصانع والشركات لاستمرار تغطية حاجات الناس دون تأثُّر بما يحدث".

بوجهٍ يُحاول أن يتظاهر بالهدوء دون أن ينجح تمامًا، وَجَّهَ المسؤولُ الاستخباراتي حديثه إلى قلة من مسؤولي الإدارة المحلية ممّن آثروا البقاء في بيوتهم التي اعتادوها خارج الجزيرة. هم أيضًا لم يقدروا على إخفاء حركاتهم العصبية وانفعالات وجوههم القلقة.

"سنحتاج أيضًا إلى إرسال القوة الخاصّة لتدخل الجزيرة. نحتاج إلى أن نفهم ما يحدث"، قالها بعد ثوانٍ من الصمت.

قاعدة فيها طائرتان مروحيتان، ووحدتا تدخُّل إحداهما للتأمين الروتيني للحدود وأخرى خاصة لحالات الطوارئ هي

كل ما كان للجيش من قوات في المدينة.

بعد لحظة صمت، وجّه مسؤول الاستخبارات أمرًا إلى أحد مسؤولي الأمن: "تواصلْ مع الصحيفة والإذاعة المحلية. أخبرْهما أن يفتتحا الفقرات الإخبارية بأنَّ حاكم المدينة وبعض مساعديه ذهبوا إلى العاصمة لبضعة أيّام من أجل اجتماعات حكومية".

علَّق المسؤول الأمني: "نحتاج أيضًا إلى الحديث مع الحكومة في العاصمة. نحتاج إلى أن نخبرهم بما يحدث، وأن نطلب المزيد من وحدات الجيش".

هزَّ مسؤول الاستخبارات رأسه مُتردّدًا، ثمّ وجّه حديثه إلى أحد القادة المتوسّطي الرتبة في الجيش: "أنت أعلى رتبةً نستطيع أن نتواصل معها الآن. كم تحتاج من الوقت لتجهيز القوة الخاصة من أجل دخول الجزيرة؟".

"يوم غدٍ، بذهاب الضوء، يمكن أن ننفِّذ العملية"، جاء رد الضابط بصوت جهوري، رغم ما شابه من محاولة ازدراد ريقه.

***

حين أفاق يونس، كما اعتاد، في السادسة صباحًا، كان لا يزال يفكر، منذ ليلة أمس، أنّه في حاجة لتفقُّد الجزيرة على نحو أوسع هذا الصباح. بدا كل ما يحدثُ مُربِكًا موتِّرًا. ربّما يجد خلال

تفقده أحدًا يشرحُ له ما يحدث. فلولا هذا الرَّجُل النائم لظن أنه وحده مَن يسكن الجزيرة. لا يزال أيضًا في حاجة إلى الطعام، بعدما لم يستطعْ العثور على أيّ محلّ مفتوحٍ أمس.

ارتدى معطفًا ثقيلًا، أزرق قاتمًا، يقيه بردَ الساعات الأولى من صباحات الشتاء. أخذ الطريق الذي سار فيه أمس حين قابل الرجل. يقسم الطريق الجزيرة نصفين؛ سيسمحُ له هذا بأن يتفقَّدَ مساحةً كبيرةً بجهدٍ معقول. الفارق الوحيد بين أمس واليوم أنّه سيقطعُ الطريق نفسه مع بداية النهار لا نهايته. لا يزال الصباح يأخذ شهيقَهُ الأول، والضباب يلُفُّ المكان، يتخلَّل كلّ شقوقِه، يكادُ يصل حتى إلى القطط الصغيرة في مخابئها بين الأشجار، والبيوت والمحالّ.

لا يزال المشهد على حاله: محالّ مقفلة، لا أثر لبشرٍ، صمتٌ يهبط بثقلِه، حتّى الطيور بدا أنها لم تُفقْ بعد. وصل يونس إلى نهاية الشارع، حيث غابة الأشجار. فكّر أن يعبر إحدى ممرّاتها ملقيًا نظرة على المكان، ومِن ثمَّ يعود ليأخذ أحد الطرق المتفرِّعة مِن الشارع الرئيس ليكمل جولته.

لا أثر لأحدٍ في الممرّات. قطع عمق الغابة حتى وصل إلى ضفّة الجزيرة، لكنّ المحاولة لم تأتِ بأيّ جديد. كانت مياه النهر هادئةً، والأفق لا يزال ضبابيًا، ومن ورائه تظهر على الضفة الأخرى حركة المدينة بطيئة مُتكاسِلة كعادتها كل صباح.

خرج يونس على عجلٍ مِن بين الأشجار. أخذ يمشي مُسرِعًا

من شارع إلى آخر. مُنقبًا عن أيِّ طيفٍ يتحرَّك. لم يعدْ هُناك ضبابٌ الآن. سمح له هذا بأن يتتبَّع بنظره شُرفات المنازل لعلّه يلمح أحدًا. مرّت ساعتان على بدء تجواله الذي بدا له أشبه بتيه. لكن لا شيء جديدًا. شعر بالإنهاك والجوع يثقل حركته، فقرَّر العودة.

في الشارع الخلفي للمكتبة، لاحظ يونس أنّ ثمّة شراشف مُعلَّقة على حبلِ غسيلٍ في شرفة بيت مِن طابقٍ علويٍ واحد. لمح معها طيفًا يدخل مُسرِعًا من الشرفة. جفل. نظر إلى بوّابة البيت، فوجدها مفتوحةً. طرد تردُّده سريعًا ودخل من البوابة صاعدًا الدَّرَج وفي رأسه شك في أنّ ما رآه لم يكن تهيّؤًا.

في الدور العلوي، كان باب الشقة مفتوحًا. تردَّد في الدخول، لكن لم يكنْ أمامه خيارٍ آخر. كان البيت من الداخل نظيفًا، نوافذه واسعة مفتوحة، تسمح لضوء النهار بأن يملأ المكان. لم يكنْ هناك أثرٌ لأحدٍ في غرفة الاستقبال، ولا الحمّام الصغير، ولا الغرفتين القريبتين مِن الباب. عبر يونس الممرّ الضيِّق الذي ينتهي بغُرفة ثالثة، وبجوارها المطبخ والحمّام الكبير.

ثمّة نافذةٌ صغيرةٌ، مُشرّعةٌ، تُدخِلُ خيوطًا نحيلةً مِن الضوء إلى الحمّام الكبير، ساقطة على المرآة المواجهة، كاشفةً، على نحو مُشوَّش، تفاصيل المكان. ألقى نظرة، وبينما كان يستديرُ ليخرج مِن الباب، لمح شيئًا يلمع بخفوتٍ في حوض الاستحمام.

كانت فتاةً صغيرةً، لا تزيد عن عشر سنوات، نحيلة، ذات

ملامح حادّة قويّة، لوجه طويل، جالسةً في حوض الاستحمام، ضامّة رُكبتيها إلى صدرها في وضع أشبه بالجنين. كان انعكاس بريق ضئيل مِن خصلات شعرها الأسود المتموِّج الكثيف، على إثر سقوط خيوطٍ من الضوء عليها، هو ما لفت انتباهه لوجودها.

وجدها يونس مُحدِّقةً فيه حين نظر إليها. اقترب منها. بدا في عينيها مزيجٌ مِن الخوف والريبة.

"أتسمعينني؟" فأومأتْ برأسها.

"أين أهلُكِ؟" سألها بصوتٍ خافتٍ بدا ضئيلًا كمقدار الضوء المُتسلِّل مِن النافذة.

جاء ردّها بصوتٍ خافتٍ لا يكاد يُسمع: "أمس، حين قمتُ مِن نومي، وجدت كلّ واحدٍ منهم منزويًا في ركنٍ بغُرفته".

"وماذا حدث بعد ذلك؟" سألها وهو يقترب أكثر ناحيتها.

– لمّا حاولتُ أن أسألهم عمّا بهم، فزعوا. وكلما حاولت الاقتراب مِن أحدهم، أجده يهرب، يهرول بعيدًا عنّي. تركوا البيت فزعين، بملابس نومهم، دون شيءٍ في أقدامهم. خِفتُ أن أتبعهم، فتركتُ الباب مفتوحًا حتّى يمكنهم الدخول حين يعودوا.

كان نشيجها متقطّعًا، وهي تُكمِل: "لكن لم يعدْ أيٌّ منهم منذ صباح أمس".

"لا تخافي. تعالَي معي. سنبحثُ عن أهلِكِ معًا"، أخرجها مِن

حوض الاستحمام. ضامًّا إيّاها إلى صدره، عائدًا بها إلى المكتبة.

***

الطعام هو أكثر ما كان يشغل يونس. لا يعرف كيف يحصل عليه والمحالّ كلها مقفلةٌ على هذه الحال. أصبح في ليلة واحدة مسؤولًا عن رَجُلٍ مضطربٍ، يعاني من شيء لا يفهمه، وفتاةٍ لا تتجاوز العشرة أعوام.

جلس شاردًا على كرسيّه بجوار النافذة، مُنهَكًا مِن المشي في شوارع المدينة، يتنقَّلُ بعينيه بين السماء التي بدأتْ تتغيَّر رماديتها الكئيبة مع انسلال الشفق إليها، مُتلمِّسًا أطرافها، على نحو خجول في بدايته.

نظر يونس إلى نسخة من لوحة غروب ويستمينستر المُعلَّقة على الحائط المواجه لنافذة غرفته. أُخِذ دومًا بقوّة الأحمر القاتم ودرجاته التي تبدو كأنّها تُضيءُ بالفعل؛ حتّى إنه كاد يظنّ أحيانًا أنّ ألسنة نيران هي مصدر هذا الضوء اللهبي المُحتل لسماء اللوحة.

كانت اللوحة وبعض كتبه ضمن أشياء قليلة أحضرها معه من شقّته القديمة، رغم أنه بهذا كسر قراره بألّا يحمل معه ما له علاقة بفترة عيشه مع عُلا. حتّى إنّه ترك هاتفه المحمول. كان يعرف أن لا أحد سوف يشعر بغيابه. أراد التخلّص من ثقل التذكُّر، من الاجترار اللانهائي لمشاهد عيشهما معًا.

وحين بدا الشفق كأنه يطعن السماء في تُخومِها، مُريقًا دمها على لوحة الكون المتمدّدة، وسديم المجرّة المتخفي ينتظر العتمة ليُظهِر ألق نجومه، كان يونس لا يزال شاردًا في لوحة تيرنر. بدتْ له كأنّها تستجلب الشفق من الأفق إلى الغرفة. وحين أفاق من شروده، كانت السماء قد نزفتْ كلّ ما بها، وحلَّت العتمة رويدًا رويدًا تلُفّ الوجود، منسابة إلى ما بين جنبات يونس، موغِلة في فضاء الغُرفة، مبتلعة الأشياء كلّها.

كان يدرك أنّ ما لديه من طعام لا يكفي ثلاثتهم. ظلَّتْ عيناه تُحدِّقان في مشهد الشجر الكثيف. بدت الأشجار في الظلام كأنّها أشباحٌ ستمتدّ أغصانها لتُطبقُ على جسد الغُرفة في أيّ لحظة. أدار رأسه ناحية كومة الكتب الموضوعة إلى جوار سريره، والقلم الحبر، والورق الأصفر، المُحال من أثر الوقت والغبار إلى ما هو عليه مِن حال.

انتبه يونس إلى أنّ الرجل بدأ يفيق مِن غفوته. أمسك بإحدى الأوراق والقلم الحبر، مُقتربًا منه. كتب في الورقة: "أَخبرْني ماذا بك؟ هل تسمعني حين أتكلَم؟ هل تفهم ما أقول؟ إن كُنتَ لا تسمعني فاكتبْ لي".

لم يظهر على وجهِ الرجل أيّ شيء يوحي بفهمه ما كان مكتوبًا. شعر يونس حينها بأنّ الرجل أشبه بالقالب الآجرّي المصمت. تذكَّر أنّه يعرف بعض حركات لغة الإشارة، فحاول بها، لكن الرجل تتبَّع حركات أصابع اليدين في الهواء دون ما

يدل على فهمه شيئًا منها.

***

فَزَعٌ تكاثف في الليل، حتى لفّ المدينة كلها. والناس في بيوتهم، يحاولون طرد شيء من الأرق والقلق، في ليل طويل بدا الزمن فيه متفلّتًا من إيقاعه المعتاد. لا سكينة، لا شيء يخرجهم من مأزق ليلهم المشدود المتوتر.

ومسؤولو كلّ من الإذاعة والصحيفة في قلب المأزق، عاجزون عن فعل شيء، بعد أن تقطَّعتْ أوصال اتصالاتهم بهواتف المسؤولين ورجال الأعمال، لثاني نهار بعد العطلة.

بدت المدينة مُعتمة مِن أثر تراكم الغيوم في الأفق. السيّارات تسير بكسل، والوجوهُ على قسماتها شيءٌ بين الشرود والانطفاء. نهار بطيءٌ مُرْبِكٌ يتسرَّب مِن بين أيدي الناس حتى وصول الشفق الأحمر من أثر مغادرة الشمس، مُخضِّبًا الأفق الرمادي الكئيب.

منذ أول من أمس، ظلّت بعض نوافذ المنازل والعمارات القريبة مِن ضفة النهر، مضيئةً طيلة الليل، دون أن تنطفئ إلّا حين يكشط ضوء الصباح الشاحب شيئًا مِن العتمة.

في الطابق الأوسط من إحدى البنايات بشارع جانبيّ، متفرّع من الطريق الموازي للنهر، كانت نافذة عُلّا لا تزال مُضاءة. وبين رواية "في انتظار البرابرة"، التي قرأتها عدّة مرّات

من قبل، واللوحة المُعلَّقة على الحائط المواجه لها، "العاصفة الثلجية" لتيرنر، جلست شاردة تستمع لشوبان.

كانت عُلا في الثالثة والثلاثين من العمر. شَعرها أسود، يشوبُه شيءٌ مِن خصلات فاتحة. وجهها يبدو كأنّ الشمس لوّحَتْهُ مرّة بعد أُخرى حتّى انطبعتْ عليه.

حاولت أن تُشتِّت عن روحها القلق الحائم حول المدينة، المُتسلِل إلى جسدها. لكنَّ قلقها لم يكنْ مثل الآخرين. أثقلتها معرفتها أن يونس يقيم في الجزيرة، وأن ليس لديها وسيلة اتصال به. فهي لا تعرف له رقم هاتف منذ توقَّفا عن العيش معًا.

وقفت في شُرفتها التي كان بإمكانها أن ترى منها حيِّزًا ضئيلًا مِن مشهد الجزيرة. وهي تفكر في ما يمكن أن تفعل لِتصل إليه. طوّقها القلق، حتّى إنّها شعرتْ بصدرها يضيق. وسط ذلك انتشلها مِن تكالب الهواجس عليها دويُّ انفجارٍ مُباغتٍ أتى من ناحية الجزيرة. انفجارٌ ودخانٌ يتوهُ لونُه الرماديُّ في لون الليل المعتم. صدحت صفّارات إنذار. هلع الناس إلى الطريق القريب من النهر. تفاقمت أعدادهم خلال دقائق، مصوّبين أنظارهم إلى حيث الجزيرة، واجمين أمام ما يحدث.

***

صدح، مِن اللاشيء، طنينُ موسيقى بدأ خافتًا، ثمّ أخذ يعلو شيئًا

فشيئًا، حتّى أصبح صاخبًا إلى حدٍّ هائل. وحين انكسر إيقاعُهُ، استعاد يونس شيئًا مِن هدوئِه، التقط شهيقًا واحدًا بالكاد، ولم يكدْ يخرج زفيره حتّى عَلا الإيقاع من جديد، مُمزِّقًا الجزيرة كلها، ضاربًا التصدُّعات في كلّ جسدها، وأسفل الغُرفة، كان الصدع آخذًا في التمدُّد برويّة. لكنّه انبجس فجأةً، مُبتلعًا يونس بلا تمهّل.

هناك في هذا السقوط الحرّ بالصدع المعتم، كان يونس لا يزال يسمع الموسيقى، عرفها، إنها Burial at the Sea. كانت تزداد علوًّا كلما قطع سقوطه أوتار الوقت. بدا السقوط لانهائيًّا. بدا كأنّ يونس لن يرتطم بأرضٍ أبدًا. أخذ إيقاع الموسيقى يدقُّ في رأسِه، يُفتِّتُ جنبات الصدع الآخذ في الاتّساعُ مُحيلًا إيّاه إلى أخدود بحجم مجرى النهر.

كلُّ ضربةٍ على أوتار الجيتار الكهربائي في المقطوعة كانت تأخذ يونس إلى تشظٍّ كامل، وكأنّه لا يسقط في صدع أرضيٍّ عميقٍ، ولا حتى في أخدود عمره ألف عام، بل يمرُّ في ثقبٍ أسودَ، حيث لا زمن، حيث لا تُدرك إلّا شيئًا واحدًا فقط: الاستسلام للعبور، للتشظّي؛ لأنّه لا شيء آخر يُمكنك حقًّا أن تفعله، لا شيء سوى السقوط، سوى المرور مسلوبَ القدرة على اختيار الوجهة.

ومع الضربة الأخيرة على الوتر الأكثر حدّةً في الجيتار الكهربائي، انتفض يونس مِن نومه وهو يلهث. جسدُهُ مُتعرِّقٌ

وكأنّه كان مغمورًا بالمياه كليًّا. وحين فتح عينيه، كانت العتمة تلفّ الغرفة، والصمت حادّ كالماس. كان يشعر بالبرد الشديد، يفكّر وهو يلتقط أنفاسه المُتسارِعة، وضربات قلبه عاليةٌ تضجّ في رأسه، تكاد تُصيبه بالتصدُّعات، هل ثمّة قاع للأخدود؟

قام يونس من سريره، متحرِّكًا نحو الحمّام وهو لا يزال مشوّشًا. وضع رأسه تحت الماء، مستسلمًا له دقائق عدّة، كان مِن الممكن أن تطول لو لم تباغته فكرة: "يجب أن أعثر على راديو أو تلفزيون".

منذ سنوات طويلة لم يعد يستخدم التلفزيون أو الراديو تجنّبًا لرتابة ما يقدّمانه.

"ألديكم تلفزيون أو راديو في المنزل؟"، سأل الفتاة بعدما أيقظها برويّة.

أومأت برأسها إيجابًا.

يبدو الطقس في هذه الساعة، حيث لا تزال خيوط الضوء نحيلة خجولة، وكأنّه يحمل سُمًّا في الهواءِ مِن شِدّة برودته. رغم هذا ألحّت الفتاة على أن تذهب معه، فدثّرها بمعطف أزرق يشبه ما يلبسه لكنّه أقدم بعض الشيء، لم يعدْ يرتديه إلّا أثناء نومه في ليالٍ يكون البرد فيها قارسًا، حين لا يكفي غطاء نومه لتدفئته.

لمّا خرجا، كان الضباب قد تخلى عن ملامسته للأرض، علا سنتيمترات قليلة، بدا كأنّه مُمتدّ من كاحل يونس واصلًا إلى السماء. لا يستغرق الوصول إلى البيت أكثر من ثلاث دقائق؛

سيأخذ الشارع الجانبي ليصل خلف المكتبة، دون أن يقلق من فقدان الطريق وسط هذه العتمة الرمادية الكثيفة.

وجد بوّابة البيت مفتوحةً كما تركها أمس. حين صعدا كان باب الشقة لا يزال مواربًا.

"لم يعدْ أحدٌ إذًا"، فكّر.

مرَّ بين قنوات التلفزيون: برامج طبخ، إعادة لمباراة كرة قدم، فيلم قديم، مسابقات غناء، مسابقات رقص. أنصت حين وصل إلى نشرة الأخبار، لكن لم يكن هناك شيء عن مدينته الحدودية النائية.

ضبط الراديو على تردّد الإذاعة المحليّة. مرّت دقائق قبل أن يأتي موجز الأخبار. كانت ثمّة إشارة إلى أنّ حاكم المدينة لم يستطعْ أن يُلقي كلمتَهُ أول أمس لشعوره ببعض التوعُّك، وأنّه ذهب في إجازة قصيرة للاستشفاء.

لم يفهم شيئًا. لم يستطعْ أن يُدركَ ما يحدث، بدا الأمر كأنَّ الجميع يخادعونه، يلعبون به، يوهمونه. الجميع هنا، في هذه المدينة التي يبدو أنها نُسيت من الوجود كلّه، يتقصَّدُ أن يصيبه بالجنون.

أغلق التلفزيون، والراديو. أرجع ظهرَهُ مستندًا في جلسته إلى ظهر الأريكة. ظلَّ مُحدِّقًا في السقف لدقائق. غمره صداعٌ شديد الوطأة، بدا كأنه سينسفُ دماغه، طنينٌ مُستمرٌّ يتعالى، وحين حاول أن يغيّر موضع إسناد رأسه، شعر به ثقيلًا بما يكفي

ليتهاوى إلى الوراء ثانيةً. فاستسلم له، مُغمضًا عينيه، محاولًا احتمال الطنين الذي أصبح ملأ سمعه، حتّى إنّه لم يعدْ قادرًا على سماع أصوات الأشياء مِن حولِه.

غفا، وكأنّ خدرًا أخذ ينتشر في جسده ليلجم تفاقم الألم.

***

حين أفاق، كانت الطفلة تجلسُ على كرسيّ إلى جانبه، وفي عينيها شيء من النعاس.

"أين هاتف المنزل؟"، سألها شاعرًا بلسانه ثقيلًا.

أشارتْ إلى طاولةٍ بجوار التلفزيون.

شعر بدوار وهو يقوم مِن مكانه. طلب رقم مركز الشرطة في الجزيرة. فجاءته نبضاتُ حرارة الاتصال صاخبة أكثر ممّا اعتاد، متتاليةً، وكأنّها تُسرع لتفتك بما بقي مِن رأسِه. نبضات تلو الأخرى، ولا أحد يردّ.

بدت النبضات المُتقطِّعة المُتتالية وكأنّها لن تتوقَّف. حتّى كاد يشعر بأنّ ثمّة شخصًا على رصيفٍ خارج هذا الكون، يستمتعُ بمراقبة حرارة الهاتف وهي تسيرُ كدفقاتٍ، في الأسلاك النحاسية، حتّى تضرب أذُنه المُلتصقة بالسماعة، مَرّة تلو الأخرى دون جواب.

لم يردَّ أحدٌ عليه. عاود الاتصال، لكن لم يأتِه سوى المزيد

مِن النبضات، متتالية، تلكمُه في أُذُنِه، تكاد تصرعَهُ أرضًا. فألقى سمّاعة الهاتف في غضب وجزع، وهو يحاول أن يلتقط أنفاسه ليُهدّئ من روعه.

أمسك بيد الفتاة وخرجا مِن البيت عائدين إلى المكتبة. كانت الشمس في منتصف السماء، تراوغها قطع قطنية مِن الغيوم، مَرّة تُخفيها ومَرّة تُجاورها، دون أن ينتصر أحدهما على الآخر.

ظلَّ الصداع ينهشُ رأسَه بعد عودته إلى غُرفته. تماسك ليضع بعض الطعام للرجل والفتاة. شعر بجسده النحيل أثقل ممّا اعتاد. حمل نفسه إلى الحمّام. ترك الماء الدافئ ينهمر على رأسه طويلًا. ونام بعد ذلك ما بقي مِن النهار. حين أفاق، كان الشفق قد عاد يُخضِّب السماء بطعنته اليومية.

"حين غفوتَ في منزلنا، نزلتُ لأبحث في الطرقات حول المنزل عن أيّ شخص لأسأله هل رأى أمّي أو أبي أو إخوتي"، حدَّثته الفتاة خائفة من ردّ فعل تجهله.

ظلّ صامتًا، مُنصتًا إلى حديثها.

"حين كنتُ في الشارع الخلفي لبيتنا، سمعتُ صوتًا يأتي مِن مكانٍ تحت الأرض. حين اقتربتُ، عرفت أنّه كان صوت حركة أقدامٍ، فخفتُ، وتراجعتُ عائدةً إلى البيت".

"أتذكرين المكان؟"، سألها وهو يستعيد بعضًا من طاقته.

أومأتْ برأسها.

"سنذهبُ إليه غدًا. من الأفضل ألّا نخرج في الليل هذه

الأيام"، قالها بصوت خافت، شاردًا بعينيه بعيدًا عنها، في نهاية حديثه.

كان يختبر نوعًا من الخوف لم يشعر به من قبل. لم يعدْ قادرًا على السير في شوارع الجزيرة ليلًا والمكان على هذه الحال. ظلَّ في غُرفته، يقرأ سطرًا ويشرد، ثُمَّ يعود إلى الكتاب الذي بين يديه، فيُعيدُ قراءة السطر نفسه مِن جديد، ثُمَّ يشرد، ثُمَّ يُعيده:

> لم ينم بعدُ، نامت المدينة والأنقاض، ولم ينمْ هو بعدُ، نامت الجسور والمياه والغيوم، نامت الأرواح والأشجار والسهل، نام الغاضبون، والمساء، ولم ينمْ هو بعدُ. كُلُّهُ لحيرة لا تصلُ أحدًا بأحد. فلتنمْ أيّها الهاذي، فما قلبُكَ إلّا قلبٌ... وما أنتَ إلّا ذَرّة وسط كلّ هذا الغبار.

ثمّ فجأة نفَضَهُ، مِن حلقة تكرار القراءة والشرود، دويُّ انفجارٍ هزّ المكان كلّه.

***

لم يكنْ في إمكان فرقة القوات الخاصّة الدخول إلى الجزيرة إلّا من خلال البوابات الإلكترونية. فالوصول إليها عبر المياه يعرِّضهم للخطر، حيث إنّ الجزيرة مطوَّقة بشباكٍ كهربائيةٍ، لا

يُتحكّم فيها إلّا مِن داخل الجزيرة.

اقتحمت الفرقة إحدى البوابات بتفجيرها بعدما لم يستطع عناصرها فكّ شفرات الدخول الإلكترونية. وبعدما أصبحوا في الداخل، حاولتْ غرفة العمليات الاتصال بالفرقة مرارًا دون جواب. رغم أن إشارة اللاسلكي كانت قوية واضحة في غرفة العمليات.

أصيب جميع من في غرفة العمليات بشيءٍ مِن الخرس. لم يفهم أحدٌ ماذا يحدث. صمتٌ في أكثر أشكاله ظلامًا، لا يقطعه سوى أصوات الإشارات اللاسلكية.

نتوء ثانٍ

يُباغت منه التيه

للموج حنينه إلى سكينة المياه،
وللسكينة حنينها إليك،
أيّها الموت

سفر دائم كرحّالة، دون راحة، هي حياة الحوت. نصف نائم، نصف يقظان، وعي وانتباه طيلة الوقت. جسد في الماء، وحياة على السطح؛ حتى يصبح حتميًا اعتياد التمزّق.

إنّني أُحتضَر. ليس في إمكاني إطلاق أنينٍ تلو أنين. أحتاج إلى أكثر من محاولة لآخذ ولو نصف شهيق، حتى يخرج أنيني طالبًا النجدة، من المحدّقين إليّ على ضفة النهر.

أنا تائه. تائه منذ لم أكمل عامي الأول بعد ولادتي. تائه منذ فقدت أمّي حتى احتضاري هذا بعد عبوري السبعين. أتذكَّر الآن كيف بدأ تيه ترحالي. كيف بدأ الأمر حتى من قبل أن أفقد أمّي. كأنّ التيه كان مصيري من البدء.

أتلمّس الموت هنا، في تمدُّدي بمجرى هذا النهر الضحل. لماذا أتذكَّر كلّ هذا الآن؟ لِمَ أجترّ ما أخبرتني أمّي به حين وُلدت في المياه الدافئة ذات الزرقة الحنونة.

أخبرتني وقتها، وهي ترضعني، عمَّن أكون. أخبرتني كيف أتيت إلى هنا، عن رحلة المكان، حين ارتحلتْ بي في المحيط، من مياهه الباردة جنوبًا إلى دفء وسطه. حين حكت لي عن رحلة الوقت، حين حملتني اثني عشر شهرًا في رحمها. وكيف تقاطعت رحلتا الوقت والمكان، لمّا قطعت المحيط، دون أن تأكل شيئًا فاقدة ربع وزنها، حاملة إيّاي في رحمها، حتى تأتي بي إلى حيث يمكنني تلمُّس بدايات الحياة، بعيدًا عن برودة المياه التي قد تقتل حوتًا غادر رحم أمّه للتوّ.

أتذكّر حين كنت أنام، وجسدي لا يزال خفيفًا، من السهل أن ترفعه المياه إلى السطح، فأتدثَّر بأسفل بطنها، لتكون هي سقفي. وأتمدَّد تحت تمدُّدِها الأفقي بالمياه. يلتصق ظهري ببطنها، فأنعم بنصف نومي، وتنعم هي الأخرى بنصف نومها. وحين أصحو، أتلمّس جنبات الأفق المائي، النقيّ الزرقة، قريبًا من رمال القاع البيضاء الناعمة؛ وأمّي ما بين إنهاك الولادة وحبور مشاهدتها لي.

كنت مُنتبِهًا لكلّ حكاياتها، لأنّاتها وأغانيها. لكيف تكوّنتُ. كيف أن الحيتان الحدباء تتزوج بمثيلاتها. إلّا هي، اختارت أن تأتي بي من حوت أزرق. لم يكن أيّ شيء مضمونًا. لم يكن حتى في استطاعتها أن تعرف إن كان ميلها إلى حوت من غير نوعِها قد يخلق في رحمها، بذرة ابنها الأول.

أخذتُ جمال ملامحها، وضخامة جسد أبي. كادت ولادتي

تقتلها. لكنّها نجت. بدت الحياة كريمة، وأنّ كلّ شيء يأخذ إيقاعه بلون الزرقة النقيّة الشفيفة للمياه الدافئة التي وُلِدت بها.

حين أتى ميعاد أن أتكلم، تكلّمت. لكنّها لم تسمعني. كأنّ صوتي كان مكتومًا. كأنّي كنت أتظاهر بإطلاق الأغاني، دون أن أقوم بذلك بالفعل.

كان أبي يشعر بموجات صوتي. لكن دون أن يفهمها. وكأنّها من لُغة أخرى. أتذكّر مشهدهما، حين ابتعدا عنّي مسافة ليست كبيرة، وهمس أبي مُخبِرًا أمي: "ربّما أغانيه بلغة غير لغتي أو لغتكِ".

لم تكن نظرة الحزن في وجهها هيِّنة. لكنها كانت عنيدة. أملت أن يكون الأمر مؤقتًا. أو ربّما حين أعود إلى موطني، بمياه الجنوب الباردة، فيحيط بي أقران من أهل أبي وأمّي. يساعدني هذا على أن أغنّي بلغة أيّ منهما.

لكنها كانت تخشى العودة. الرحلة إلى الجنوب هي الأخطر. إن تخطيتها، إن قطعت الطريق واصلًا إلى هناك، فسيكون في إمكاني العيش. كان خوف أمّي الرئيس من طول رحلة العودة. هل يمكن أن أقطع كلّ هذه المسافة من المياه الدافئة إلى برودة الجنوب، بالقرب منها، دون أن أفقد تيّار المياه المُمتدّ بين الجهتين. هل يمكن أن أصل إلى مقصدنا دون لغة أو وصل؟ لم يكن أمامهما سوى مراقبتهما الدائمة لي، واعتمادهما على أنّني أسمعهما، أفهمهما. هل يمكن ألا أضيع، ألا أتوه؟ لم يكن لدى

أبي إجابة أو شيء يُطمئنها به. لكنّهما اتفقا على أن يتبادلا رعايتي خلال الرحلة المنهكة.

أمّا أنا فكنت أُفكِّر: "حتى إن وصلت، فكيف سأعيش، وليس في إمكان أحد أن يفهمني، حتى أبي وأمي؟!".

اليوم الثالث

أمّا المشهد المُقام على أنقاض حاله فهو على حاله
والحيلة على حالها
والموت وحده الأكثر وحدة بين الأشجار

قبل الانفجار الذي هزَّ ليل المدينة، كانت عُلا واقفةً قُرب نافذتها، تلتفُّ في شالها الطويل ذي الخطوط الهندسية الزرقاء القاتمة؛ تحمي صدرها مِن بردٍ يتفاقم، يُمسك بالهواء حين يقترب الليل مِن انتصافه.

ذكّرها البرد بالنسيم الذي تسبَّب مَرّة بعد أُخرى بهرب الحرارة من أكواب الشاي، أثناء شرودها المتكرِّر منذ تركت يونس. كان نسيمًا يُشبه يود البحرِ حين يجِفُّ على كفِّها تاركًا احمرارًا يَخزُها حين تغسله بالماء العذب، يُشبه مياهها التي تدفَّقتْ مَرّة بعد أخرى لتملأ تشقُّقات يونس، حين كان يحملها على لهبٍ، مثل الذي يُعينها على خلق الفخّار وتماثيل الطين.

أفاقها عنف الانفجار مِن الذكرى السحيقة. هرولتْ إلى الطريق بعد لحظاتٍ مِن ذعر وتردّد تراجعت معهما إلى كرسيّها الوثير في غرفة معيشتها، مُنكمِشة في شالها خوفًا من الصوت

الذي بدا أكثر حدّة في تمزيقه عتمة الليل.

نزلت مُتلمِّسة الطريق بحذرٍ وسط من كسروا صمت الليل بحركاتهم المتوتِّرة. رأت الكثيرين يهرولون مِن بيوتهم. تلفتت حولها ناظرة إلى النوافذ والشرفات. هناك من فضّلوا التلصُّص مِن وراء نوافذهم. همهمات تحوَّلت إلى صياح متعالٍ حتّى وصل إلى صراخ تضجُّ به جنبات المكان. صراخ وصل إلى السماء دون ردّ.

"ما الذي يحدث؟"، سألتْ المهرولين من حولها.

لم يُجبْ أحدٌ. ليس هناك مَن يعرف ما الذي يحدث. شعرتْ بجسدها يرتعش، وأطرافها آخذة في التجمّد بردًا وذعرًا وسط عتمة المكان.

عادت مهرولة إلى شقتها. أغلقت الباب وانسلَّت تحت الغطاء، متكوِّرةً على سريرها، كجنينٍ أدرك بحدسٍ خافتٍ أن لا دفء قد يعود قريبًا إلى المدينة.

ظلَّتْ أطرافُها باردةً. لم تنمْ. بقيت في مكانها حتّى غمر ضوء النهار الغرفة. قامت من موضع تكوّرها مُشوَّشة الرأس. كان جفناها يحرقانها. ألقتْ نظرةً مِن النافذة، فبدت لها الأشياء هادئةً أكثر ممّا اعتادتْ. وكأنّ المكان كان ينتظر شيئًا، يترقَّب حدوثه.

حاولت أن تعرف ما الذي حدث، فتحت التلفزيون. لم تجد سوى البرامج اليومية العادية. جرّبت الراديو، باحثة عن نشرة الأخبار الصباحية في الإذاعة المحلية. لكنّها بدتْ كأنّها توقَّفتْ

عند أخبار يوم العطلة، حين لم يستطعْ حاكم المدينة إلقاء خطابه.

أغلقت التلفزيون والراديو. شدَّت الستائر، فغمرت الغُرفةَ عتمةٌ تتخلَّلها خيوط ضوءٍ شاحبة متناثرة على الحائط المقابل للشرفة.

استلقتْ على سريرها مِن جديد، مُندسّة تحت الغطاء. عادت لتكوّرها، وقبل أن يأخذها النوم إلى تيّاره، نظرتْ إلى نسخة من لوحة "إفطار رجلٍ أعمى". كانت مُعلّقة على الحائط المقابل. هي آخر هدايا يونس. هداياه التي لم تكن سوى كتب، نسخ من لوحات، واستكشاف لموسيقى لم تسمعها من قبل.

تذكّرت حين أخبرها يومًا: "أشعر أحيانًا بأنني كنت هذا الرجل الأعمى في حياة أخرى".

شردت في كلامه وهي تُحدِّق بخيوط الضوء النحيلة التي انسلّت إلى غرفتها، حتى نامت. وفي نومها، أتاها حلمٌ تكرّر كثيرًا حين كانت مع يونس. حُلم انقطع عنها بعدما ترك كلاهما الآخر.

***

انتفض يونس والفتاة والرجل من نومهم مع لحظة الانفجار. لم يجرؤ أيٌّ منهم على الخروج ومعرفة ما يحدث. ظلّوا جالسين كلّ في موضعه بالغرفة، ضامّين سيقانهم إلى صدورهم. ظلّ يونس محدِّقًا في نافذة الغرفة المغلقة. وكأنّه يحاول استقراء ما

يحدث في الخارج.

حين بدأ ذلك الصمت الأقرب للموت الذي كانت عليه الجزيرة قبل الانفجار يأخذ مكانه من جديد، بوطأة أشدّ، تفكّك شيء من التوتُّر الذي تملَّك ثلاثتهم. مدَّد يونس قدميه لأوَّل مَرّة بعد ساعة من وقوع الانفجار. أسند رأسه إلى ظهر سريره. شرد مُحدِّقًا في السقف. غفا دون أن يشعر. وفي غفوته أتاه حلمٌ، بدا كأنّه استكمالٌ للأحلام التي كانت تأتيه مِن قبلُ، حين كان لا يزال مع عُلا.

هجس لنفسه متحيّرًا حين أفاق، "لِمَ يعود الحلم الآن؟".

يتذكَّر كيف بدأت سلسلة الأحلام هذه. كان يصحو فزعًا بألم في أضلعه لاهثًا كأنّه ركض طويلًا على نحو مفاجئ. وبعد أنْ يفيق، تظلّ تفاصيل الحلم حاضرة بوضوح كأنّها محفوظة على شريط فيلم سينمائيّ. وليلة تلو الأخرى، وجد نفسه ينتظر حلمًا جديدًا يستكمل ما كان في حلم الليلة الماضية.

كان ذهنه مُشتّتًا بين محاولة الاستفاقة من نومه، والحلم، والانفجار، وما يحدث في الجزيرة منذ يوم العطلة. غرابة عودة الحلم فجأةً أثقلت قلقه وخوفه. خوف ينمو بين أضلعه، يكاد يعصرها، يسحقها ثم ينثرها كغبار بلامبالاة.

كانت السادسة صباحًا. يعرف يونس أنَّ الضباب لا يزال محكمًا قبضته على الجزيرة.

"لن أتوه"، قالها لنفسه وهو يفكِّر في الذهاب إلى منزل الفتاة.

لم يطمئنّ إلى ترك الفتاة في الغرفة مع الرجل المُضطرِب. حملها نصف نائمة لافًّا إيّاها بدثار ثقيل. حين وصلا إلى المنزل، كانت لا تزال نائمة، لم تتأثّر بحركة سيره وهي بين يديه. مدَّدها برويّة على أريكة. شغَّل التلفزيون، مرَّ سريعًا بين القنوات. لكن لا جديد في نشرة الأخبار. الإذاعة المحلية أيضًا لم تُشر إلى شيء. كأنّ الزمن توقَّف يوم العطلة.

بعينين غائمتين جلس شاردًا في الحركة الخافتة للستارة البيضاء المنسدلة. كان الضوء يتماوج عليها في كسل صباح شتوي غائم. استرخى في جلسته. كانت الفتاة لا تزال نائمةً على الأريكة المقابلة له. بدا أنّها تتحرَّك مُحاولة التحرُّر من قيد ما. تُتمتِم بشفتيها وكأنّها تتلو تعاويذ.

أفاقها يونس ممّا بدا حلمًا سيّئًا: "يجب أن نذهب الآن إلى المكان الذي أخبرتِني عنه. أتذكرينه؟".

"نعم. في الشارع الخلفي للمنزل".

حين وصلا إلى المكان الذي سمعت الفتاة الأصوات الصادرة منه، أشارتْ إلى منفذ تهويةٍ لقبو طعام تحت الأرض. انخفضا حتى لامست ركبتاهما الأرض. اقتربا مِن منفذ القبو. كان يتكوّن من ثلاث فتحات تهويةٍ متجاورةٍ مُشيَّشة بمعدن صلب قديم طاله صدأٌ واضحٌ. أبعدا رأسيهما قليلًا عن الفتحة، في محاولة ليُلقي نظرة بزاويةٍ تسمح لضوء الشمس الخافت بأن يكشف ما بالداخل.

ميَّز أجسادًا مُتراصّةً بعضها بجوار بعض. أتته رائحة لحوم نيئة، خضار مرَّ وقتٌ على تخزينها، مختلطة برائحة براز وعرق. فجذب الفتاة مُبتعدين سريعًا عن الفتحة. شعر بانقباض لا يُحتمل في أحشائه، جعله يتقيّا سائلًا أصفر من أثر خواء معدته.

لم يجد الرجل حين عاد إلى غرفته. لم يفكر كثيرًا وكأنّه كان يتوقّع ذلك. نام سريعًا من أثر الإعياء والتقيّؤ. وحين أفاق، كانت الشمس مُعلّقةً وراء سحبٍ شفيفة، تُخبره باقتراب موعد تخضُّب الأفق.

من جديد، وبإنهاكٍ يتراكم على جسده وروحه، قطع يونس الطريق الطويل الذي يقسم الجزيرة نصفين، حتّى وصل إلى سياج الأشجار. هناك، أسفل أحد الجسور، شمَّ رائحةً خافتة لشيء محترق. جفل، وحين اقترب من مكان الرائحة، وجد سيّارةً عسكريةً مُصفَّحةً واقفةً قرب بوّابةٍ إلكترونية عند أحد مداخل الجزيرة. كانت على حالتها لكن لم يكن فيها أحد. خاف أن يقترب أكثر. تراجع، مغادرًا المكان سريعًا.

عبر أحد الممرّات التي تتخلَّل الغابة، حتّى وصل إلى الطريق المحاذي للنهر. جلس يلتقط أنفاسه، شاعرًا بالإعياء يزداد ثقلًا. نظر إلى الضفّة الأُخرى. بدتْ له في تلك اللحظة أبعد من المعتاد.

"ما كان يجب أن أخرج".

لا يعرف كيف انسلَّت عُلا إلى ذهنه وسط هذه الهواجس كلها. تذكَّر حين صمّمت ما سمَّته "حائط الذعر"؛ عشرات

مِن الوجوه الطينية الصلصالية، الكئيبة، تتراصّ متجاورة. لا يزال المشهد واضحًا في رأسه حتّى الآن، حين جذبته مِن شقتهما صاعدة به إلى السطح لتريه الأوجه الطينية. بعد أن تأمَّل المشهد، سألها عمّا كانت تُفكِّر وهي تعمل على هذه المجموعة.

لا يزال يتذكَّر ردَّها رغم مرور أكثر من عام على تلك اللحظة: "عندما كنتُ أنحتُ هذه الوجوه، كنتُ أدوِّنُ ما مرّ بي قبلك. أشكِّل العجين مرّة بعد أخرى، كمَن يُدوِّن مروره بهذه الحياة على جدران أحد المعابد".

كان يونس مُدركًا أنَّ النحت بالنسبة لها يعوضها عن قلة انطباعات وجهها. تضع في الأوجه هذه ما لا يظهر على ملامحها. كل وجه تخلقه يكاد يحكي قصّة ما، يشعر بالرغبة في سماعها، والخوف ممّا تحمله في الوقت نفسه.

طالما أحبّت العمل بطين الفخار والصلصال أكثر من أيّ خامة أخرى. تجلس على سطحها كلّ يوم، قبيل ساعة الغروب بساعة غارقة في تشكيل مخلوقاتها. قالت له ذات مرّة: "في البدء كان الفخّار. قبل الروح أو اللغة. الفخار عراء تتشكّل فيه ملامح لم تخض شيئًا بعد".

***

على سطح البناية التي فيها شقّة عُلا، كانت تشكيلات الفخار مجتمعة في فوضى، تحت سقفٍ خشبيٍّ يحتلُّ ركنًا واسعًا من السطح. بينما هي جالسةٌ، كانت تعجن مخلوقات جديدة. تبثُّ فيها وهجًا يهوِّن شيئًا من خوفها من أن يُلِمّ بالمكان انطفاء أبدي.

شردت أثناء عملها. تذكَّرت ما كانت تقوله ليونس: "كيف نطمئنّ للطين بعد أن نُشكِّله لأنّه يبدو ساكنًا أمام أعيننا؟".

لانهائيًا، كان هوسها بخلق الرؤوس والأوجه والأقنعة، مِن الطين، دون أجساد. لكنها في الوقت نفسه، كانت تحتاج إلى تلبية أذواق الناس، أن تشكّل لهم أنواعًا مختلفة لأوانٍ منزلية، للطبخ أو الزينة، من أجل حاجياتهم المختلفة أشكالها وأحجامها وألوانها. وبهذه الطريقة أيضًا كانت تترك كوّة مفتوحة بين حياتها وحياة الآخرين.

أرادت أن تُعين ذاتها على العيش بما يجلبه بيع الأواني من نقود تُحافظ بها على عزلتها التي لا يكسرها سوى لقاء موزِّع أعمالها مَرّة كلّ شهر. نمط حياة اختارته بعد نجاح معرض "حائط الذعر" في العاصمة. حينها قرَّرا، هي ويونس، أن يزيدا المسافة بين عزلتهما والمكان الذي يعيشان فيه.

تشعر في خضمّ مراوغتها للصلصال بأناملها وكأنّها تستعيد القدرة على خلق جزء من طور تكوينها الأول. كانت تعرف أنّها ممّن وُلِدوا مهووسين بالطين، نبتة وجودهم الأول.

الفخار كان نتيجة إدراك تلمَّسته، حين عرفت كيف تحوِّل وتشكِّل الطين على هيئة أجسادٍ مُتماسكة تأخذ صلابتها من إحاطتها باللهب الناري. وسواءً كان الطينُ مدريًّا أو حجريًّا، سواء كان مجلوبًا من مجاري الأودية أو الأنهار أو الهضاب أو الجبال، سواء كان لونه أخضر، أبيض، أحمر، أو أسود، فقد كان في إمكانها دومًا أن تخلق منه ما يُعينها على العيش اليومي: جرارًا، طناجرَ طهوٍ، أباريق، أكوابًا وصحونًا، أوعيةً لتبريد الماء وحفظ زيت الزيتون، زهرياتٍ، أُصص النباتات، ومنحوتاتٍ تتأمّل فيها المادّة الأوَّلية لوجودها. منحوتات لا ينقصها سوى النفخ الإلهي المُلغِز؛ فتصبح شقيقةً لها. هكذا أخبرتها النصوص القديمة عن حكاية مشابهة للإله مع الطين الصلصال.

كانت تفكِّر، "أهو توق إلى الإله، أم توق لأن يكون المرء إلهًا؟".

عرفت دومًا أنّها إن شكَّلت الفخّار من الطين فقط، فلن ينجح الأمر، ستُصاب التشكيلات بالتشقُّق أو ستعيبها مسامّ تتسرَّب منها ما تحتويه. لكنّ هذا كله لن يظهر في لحظات التكوين. فالتشقُّق يتجلّى مع لحظات النفخ في الطين من روح النار. لو كان التسخين سريعًا، لأصيب الجسد الطيني بمسامية عالية حين تتشبَّث فقاقيع الهواء البخارية بهذا الجسد في اللحظات الأولى من وضعه في الفرن.

تعلَّمت عُلا أن تضيف دومًا إلى طينها نسبًا من الرمل، وفُتات

الفخّار القديم. فهو ما يجعل أجساد تشكيلاتها أكثر تماسكًا أمام سوط نار بألف وأربعمئة درجة مئوية. سوط يعينها على ممارسة تأرجحها بين قدرتها على الخلق، وتدبير قوتها.

تتذكَّر أنّه كان يقول لها دومًا: "شيطانك يحتمي بتنويعات ما تخلقه أناملك".

اعتادت أن تسمع موسيقى فيلم تحديقة يوليسيس، تاركة إيّاها تتكرَّر أثناء عملها. لم تملّ من مشاهدة هذا الفيلم يومًا، شاردة في كلّ مرّة، مُستعيدة إيقاعات موسيقى إليني كاريندرو، فتستلهمها حركة يدها وهي تعمل على تشكيل طينها، أو أثناء تأمّلها الأقنعة والرؤوس المستقلّة غير المتراصّة تحت السقف الخشبي على سطح البناية. لم تُنهِ لمساتها الأخيرة على هذه المجموعة منذ أن غادر يونس. لا اسم لهذا المعرض غير المُعلن عنه، غير المكتمل. لكن يونس أحبَّ أن يُسمّيَهُ دومًا "الأوجه المحدِّقة".

تتذكَّر حين كان يكتب تعليقاتِه على أعمالها بالقلم الحبر في دفتره الأزرق ذي الورق الأصفر. تلوح بذهنها بدايات عيشه معها، مُتلمّسًا عالمها. تتذكّر أحاديثها معه عن المدينة المنسيّة المُصابة بالتصدُّع والخراب. والآن، تبدو حتمية الدمار كما لو أنّها أكثر يقينًا من أيّ وقت مضى. أتأخذها عزلتها لحساسية مفرطة مبالغة في تخيّل مآلات الأشياء؟

هل ستنبعث المدينة مِن وسط الفاجعة التي لم يكنْ، حتّى

الآن، أيٌّ مِن ساكنيها يفهمها، أو يدرك ماهيتها؟ أم ينتهي المشهد بالبقاء على أنقاض نفسه، مُتقصِّدًا ألّا يعود إلى أيِّ حياةٍ تشبه تلك التي تعرفها؟

***

تخدَّلتْ عضلات ظهرها، وذراعيها. كانت الشمس قد قاربتْ على المغيب، تُخضِّب السماء مَرّة بعد أُخرى وكأنّها تُراكِم طبقات الدم دون أن تُشبعُ نهمها.

وقفتْ عُلا قرب حافة سور السطح. ألقتْ نظرةً على المدينة القلِقة، كانت الأشياء كلها بطيئةً في حركتها. أمّا الجزيرة فبدت لها ميتة أو مهجورة.

على الضفّة الأُخرى، كان يونس جالسًا على إحدى الصخور في ممرّ بين الأشجار موازيًا لمسار النهر. لم يكن أيّ منهما يعرف أنَّ الآخر ينظر في الأفق إلى نقطة يشغلها الآخر الآن. كلاهما مُمتلئٌ حيرةً وقلقًا مَبعثه اللافهم، وبينهما وريد النهر بحركته البطيئة الكسولة التي بدتْ في هذه اللحظة وكأنّها ازدادت كسلًا. بل بدتْ لأعينهما أنّها توقَّفَتْ عن الحركة تمامًا. امتلأت المياه بسكون ثقيل، مثلما تملأ العتمة جنبات الغابة في الليل.

ظنَّ كلاهما أنَّ الشفق الأحمر وانعكاسات الضوء المتباينة على سطح الماء يخادعان بصريهما. لكنّ الشمس التي كانت

تنغمس في مياه النهر من ناحية مصبِّه، عند الخليج، بدتْ هي الأخرى مثلهما، ساكنة، في تحديقها لسكون النهر.

لم يدم السكون طويلًا، كانت أقلّ مِن دقيقة، ثُمَّ عادت المياه إلى حركتها مضطربةً مهتزّة.

ازداد اضطراب المياه، وفي ثوانٍ، سمع يونس صوت تشقُّقات في جسد الجسر القريب منه. وقف مُحدِّقًا في المشهد، يهرول بعينيه أمام التصدّعات التي تجري في جسد الجسر الأسمنتي الصلب. تصدّعات ملأته سريعًا، بلا رغبة في التوقُّف، وكأنّها تلتهمه، تطعنه مَرّة بعد أُخرى، تقضي على مقاومته، أو محاولة مقاومته، لتتركه ينهار كلّيًا، كركام، في مياه النهر، وكأنّه لم يكنْ يومًا هنا.

فزعت عُلا حين رأت الجسر يتهاوى في النهر. عادت خطوتين إلى الوراء، ولم تُفقْ مِن الفزعِ والمفاجأة إلّا حين رأت الجسور الأخرى للمدينة تتهاوى.

أصبحت الجزيرة في دقائق قليلة جسدًا بلا أيّ وصل. في دقائق، كانت أوردة الأرض مُقطَّعة، وكان الأفق مُخضّبًا.

اليوم الرابع

اصعدي يا طرائد اليأس حتى جحيمي
أو لتتقطّعي في مهبّ الأبدِ

تراجعتْ علا عن سور السطح بعدما استقرّت الجسور المتهدِّمة في مجرى النهر. جلست على الأرض الباردة، فوق البلاط القديم المُتشقِّق. تُفكِّر فقط كيف تصل إلى يونس وسط كلّ ما يحدث.

في الوقت نفسه، كان يونس يركض نحو المكتبة، هربًا، فزعًا من كلّ هذا الركام المنهار بغباره الذي بدا وكأنّه سوف يظل عالقًا في الهواء دون أن يخمد. وفي خضمّ ركضه بالطريق الطويل، باغته وجه عُلا وسط ما تملّكه حينها من خوف ورغبة في الهرب من المكان كلِّه.

في غرفته، وجد الفتاة فزِعة. بدت لها أصوات الانهيارات أشبه بأصوات وحوش في عوائها الأخير وهي تُشارِف على الموت. كانت جالسة على سرير يونس متدثّرة بمعطفه الشتوي القديم. جفلت حين دخل في لهاثه. لم تتركه طويلًا حتى أخبرته: "كان هناك طرق شديد على أبواب المكتبة من ثلاثة رجال وامرأة. رأيتهم من وراء النافذة".

"كيف كان شكلهم؟".

"رأيتهم من ظهورهم . ملابسهم مُتّسخة، دون أحذية في أقدامهم".

"هل رأوكِ؟".

"لا، كنت أراقبهم من بين درفتي النافذة وهي مغلقة".

سألته "ماذا حدث في الخارج؟".

"الجسور انهارت... فجأة"، قالها وبقايا لهاث واضح في صوته.

لم يقل شيئًا آخر بعدها. بدا كأنّ الكلام هرب فجأة. ظلّت محدّقة فيه، "ماذا سنفعل؟".

أفاقه سؤالها من استعادته مشهد الانهيار، "يبدو أنّنا علِقنا في الجزيرة".

صمت لحظة، ثم أكمل: "الغرفة لم تعد آمنة، ولا نستطيع المكوث في منزلكِ. فالوضع لن يكون آمنًا دون مفتاح نغلق به الباب".

فكّر لثوانٍ: "المكتبة ستكون آمنة في هذه الأوقات. لكنّنا نحتاج إلى الطعام. لا أعرف كيف سنتدبّر أمره والمحالّ مغلقة على هذه الحال".

"هناك طعام في ثلاجة البيت"، نبّهته الفتاة.

"ننتقل أولًا إلى المكتبة ثمّ أذهب إلى هناك من أجل الطعام".

في المرّة الأولى لنقل الحاجيات، حمل يونس مرتبة سريره،

وحملت الفتاة ما بقي من الطعام. وفي المرّة الثانية، حمل مخدّتي السرير وأغطية النوم، وأدوات الحلاقة والاستحمام، وتكفّلت هي بحمل بعض الكتب.

وضعا الأغراض كلها في حجرة بالطابق الثاني بقصر المكتبة. اختار يونس غرفة صغيرة؛ ليقلّ شعورهما بالبرد. ترك الفتاة في الغرفة لتنام، وبقرب الباب، شغّل مدفأة صغيرة لطرد شيء من البرد والرطوبة التي كانت لا تزال في الغرفة من أثر عدم استخدامها. أراد أيضًا أن يؤنس الفتاة بالضوء الخافت للمدفأة، في الوقت الذي سيمضي بين ذهابه إلى منزلها والعودة منه.

لم يحتج إلى الكثير من الوقت ليُعبّئ الطعام المتاح في منزل الفتاة: خضروات، فاكهة، خُبز، جُبن، أطعمة مُعلّبة، عصائر، سكر وشاي وقهوة. حمل الحاجيات في أكياس بلاستيكية عائدًا إلى المكتبة وهو يفكّر في أن يأتي مرة أخرى ليأخذ أغطية إضافية من أجل الفتاة.

لفحته لطمات الهواء البارد حين خرج إلى الشارع. أسرع في خطواته، محاولًا تبيّن الطريق. فالظلام كان مطبقًا على المكان. لا ضوء يأتي من أعمدة الإنارة أو نوافذ البيوت. لا شيء سوى فحيح هذا الهواء المُمسِك بعتمة ليلية شديدة.

في طريق العودة إلى المكتبة، التقطت أذنه وقع خطوات ظنّها في البداية خطواته. أبطأ في مشيه، فسمعها مهرولة. توقف. تلفّت. لم يرَ شيئًا في الظلام. لكن باغتته يدان من

الخلف، أمسكتا برقبته. حاولتا إيقاعه، ونزع الأكياس من يديه. كان الجسد الذي هاجمه نحيلًا ليس ذا قوة كبيرة. أبعده يونس موقِعًا إيّاه على الأرض. لم يتبيّن وجهه، أو تفاصيل جسده في هذه العتمة. ركله يونس بقدمه عدّة مرات كرجل أعمى لا يملك سوى حدسه وخوفه ليدافع عن نفسه، حتى أنهكه الرجل. حمل أكياس الطعام وجرى عائدًا إلى المكتبة. ومن ورائه كان يسمع صوتًا ما بين الصراخ والنواح.

حين وصل، صعد لاهثًا إلى الغرفة حيث الفتاة. أفاقت من نومها فزِعة، على وقع خطواته المهرولة على السلالم الخشبية العتيقة داخل المكتبة. أضاء الغرفة. نظرت إليه بعينين خائفتين. اقترب منها وهو يلهث محاولًا طمأنتها. وضع الطعام بجوارها بعدما التقط أنفاسه، "سيكفينا هذا لبضعة أيّام أخرى. ثلاثة أيّام على الأكثر".

كان الإنهاك ينال منه. عاد له وجه عُلا مرّة أخرى. لا يعرف عنها شيئًا طيلة هذا الوقت. لم يستطع محادثة أحد خارج الجزيرة. لا أقسام شرطة تجيبه. لا يملك هاتفه المحمول، والإنترنت لا يعمل على جهاز الكمبيوتر الخاص بالمكتبة منذ صباح يوم العطلة.

فكّر أنّها ربّما هي من يمكن أن تساعده. تذكَّر أنّه لا يزال يحفظ رقم هاتفها. نزل إلى القاعة الكبرى. لم يضِئ المكان. جلس إلى مكتبه. انتظر لثانية قبل أن يطلب الرقم. جاءت نبضات الاتصال مُتتابِعة، حتى ردّ صوتها من الضفّة الأخرى: "مرحبًا".

ثمّ سكتت منتظرة الجواب من الناحية الأخرى.

وخزته نبرة صوتها، "أنا... يونُس".

"أين أنت؟" سألته ونبضات قلبها أقرب إلى لكمات تضربها، وتحاصرها من الأضلع الخلفية، لا تريد إفلاتها.

- لا أزال في الجزيرة. ما الذي يحدث؟

- لا أعرف. لا شيء واضح. كيف الأمور عندك؟

- قد يبدو جنونًا ما سأقوله. لكن حتى أمس كان حاكم المدينة في غرفتي فزِعًا وكأنّه قد مُسّ، بينما كانوا يقولون في الراديو إنّه في عطلة.

أكمل وخفقان قلبه يضرب رأسه: "لا محالّ أو دكاكين مفتوحة. لا ضوء في أعمدة الطرق ليلًا. قبل قليل هاجمني شخص ما ولا أدري كيف أخرج من الجزيرة. الجسور تهدّمت. ولا أستطيع السباحة. وحتى إن حاولت، فمعي طفلة لن تتحمّل مشقة العبور وقد تكون حياتها في خطر".

"طفلة؟!" سألته مُتفاجِئة.

"نعم. ما يهمّ الآن هو أنّي أحتاج لأن أصل إلى أيّ شخص في إمكانه أن يخرجني من هنا".

صمت كلاهما.

عاد ليسألها: "كيف الحال ناحيتكم؟".

"خوف وترقب. لا أحد يفهم ما يجري. مشهد الجزيرة بلا حركة دخول أو خروج لأكثر من يومين ظلّ يثير الخوف

والتساؤل. لكنّ الأمر وصل إلى أقصاه اليوم مع تهدّم الجسور. بعض الأصدقاء يقولون إنّه منذ يوم تغيّب حاكم المدينة، لم يروا أيًّا من المسؤولين في مكاتبهم".

"ثمّة شيء غريب يحدث، أو حدث بالفعل،" قالها. ثم أكمل، "يجب أن نصل إلى أحد كي يخرجني من هنا".

"سأحاول. في الصباح سأسأل بعض الأصدقاء، وأعود لك. سأتّصل بك على هذا الرقم".

تسلّل الصمت إلى الأثير بينهما، ثم عادت لتقول "سنبقى على اتصال، حتى أراك أمامي من جديد".

***

كان جسده منتصبًا عموديًا، كأنه مُعلَّقٌ دون حبال. رأسه لأسفل دون أن يلمس القاع. جسده كلّه تحت الماء. كان نائمًا، هناك، في موضع بالمياه العميقة. الناظر إليه سوف يرى جفنيه يرتعشان وكأنّه يحلم بشيء. كان يحلم بالفعل. كان يحلم بنفسه حين كان صغيرًا، يحلم بأول مرّة غنّى فيها أغنية الحيتان. ظلّت تصدح في رأسه محاولاته الأولى للغناء. ابتسم وهو نائم مُنغمِسًا في حلمه. ثمّ أفاق، ناظرًا حوله. كانت المياه معتمة. وهو كما اعتاد، وحده. شعر بجسده الكهل مُجهدًا. لم يعد في إمكانه السباحة والترحال في المياه مثلما كانت الحال وهو شاب. اعتدل من انتصابه الرأسي،

وأطلق أنينًا، اعتاد ان يبدأ به أغانيه التي لم تكتمل يومًا.

في الغرفة، فتح يونس عينيه. شعر بلسانه وكأنه مالحٌ. "الحُلم عاد"، قالها في رأسه.

يتذكّر التفاصيل بوضوح. كان حوتًا يحلم بتلك اللحظة التي غنّى فيها للمرة الأولى. يتذكّر الأنين الذي أصدره. شعر بأثر لضغط المياه على أذنيه وكأنّه خرج منها للتوّ. أحسّ بجفنيه ثقيلين، والدم مجتمعٌ في رأسه كأنّه كان مُعلقًا لأسفل بالفعل.

ارتشف من زجاجة المياه بجانبه. مرّة تلو الأخرى وكأنّه يريد أن يُذهب طعم المِلح عن لسانه. في الوقت نفسه، كانت الخيوط النحيلة لضوء الصباح الغائم تتسلّل من النافذة المغلقة لغرفته.

أمسك الضباب بالمكان. تكاثف. لم يكن في الإمكان رؤية المدى في صباح رمادي غائم أقرب إلى العتمة منه إلى الضوء.

***

حين أفاقت علا من نومها، كان بياضٌ شديدٌ يغشى الرؤية. أغمضت عينيها ثانية وفتحتهما من جديد فبدأت الأشياء تعود للظهور شيئًا فشيئًا. من لون الضوء الهيِّن المحجوب وراء ستارة شرفتها، عرفت أنّ صباحًا غائمًا آخر قد أتى. انتبهت في تلك اللحظة إلى أنّ الحلم القديم الذي تكرّر كثيرًا، قد عاد مرة أخرى. تذكّرت تفاصيل الحلم. كانت قطّة عمياء. تسمع كلّ صباح أنينًا

غريبًا ظلّ يأتيها من مصدر لا تعرفه. أنين مُتّصِل مُتغيّر إيقاعه. كان علوّه يزداد في كلّ صباح عن السابق له دون أن تعرف يومًا مصدره.

شغّلت الراديو حين أفاقت على غير عادتها، تاركة الصوت عاليًا لكي تسمعه وهي بعيدة عنه. كانت تفكّر كثيرًا في ما قاله يونس عن أنّ حاكم المدينة كان معه، حافيًا، بملابس المنزل. تفاقم شعورها بالصداع والتشتّت مع محاولاتها إيجاد تفسير للأمر.

في التاسعة، سمعت صوت بداية نشرة الأخبار. لم تأتِ مقدّمة النشرة بجديد. لكنها تذكّرت أنّ رئيس تحرير النشرة الصباحية صديقٌ لها. تردّدت في الاتّصال به لمرور وقت طويل على آخر حديث لهما. لكنّها وجدت نفسها مدفوعة للاتصال به رغم تردّدها.

وعدها رئيس التحرير بمحاولة الوصول إلى شخص قد يساعد. وبعد ساعة جاءتها مكالمة منه طالبًا عنوانها، "سأمرّ عليكِ بعد أن تنتهي نشرة أخبار الثانية عشرة ظهرًا. سنذهب للقاء أحد المسؤولين القليلين الذين لا يزال في إمكاننا الوصول إليهم. الرجل يريد أن يسمع منكِ كلّ ما تعرفينه".

***

في غرفة الاجتماعات بمبنى الاستخبارات، كان الوضع يتفاقم

دون قدرة على السيطرة؛ كارثة تهدُّم الجسور زادت ثقل الحيرة والعجز. الكهرباء تنقطع يومًا تلو الآخر عن المزيد من المناطق. قلّت الطاقة المُتولّدة من خزان المياه الواقف عند الجهة الشرقية للجزيرة. المياه محجوزة في الخزّان، ولم يعرف أحد كيف يمكن تحريرها، وأجهزة التحكم في إدارة الخزان كلها داخل الجزيرة. لم يكن أحد يعرف حجم ما يمكن أن يحدث لو لم تُفتح بوابات الخزان.

وسط الاجتماع، خرج رجلٌ للقاء عُلا ورئيس التحرير. رغم أنها لم تعرف وظيفته أو أيّ سلطة قد تكون في حوزته، لم تملك سوى أن تحكي له كلّ ما تعرفه. أعطاها رقم هاتفه، طالبًا منها أن تبقى على تواصل معه، وأنّه سيتّصل بها ليخبرها ما في إمكانهم أن يفعلوه. طلب منها رقم المكتبة ليبلغ يونس كيف سيخرجونه من الجزيرة.

"مع تهدّم الجسور نحن مجبرون على استخدام إحدى طائرات الهليكوبتر المتاحة لإخراج هذا الرجل الموجود هناك،" قالها لهم مدير الاستخبارات في نبرة قرار لا استشارة.

اتفقوا على تحضير مجموعة محدودة من أفراد القوة الخاصة من أجل المهمّة الجديدة. لن تهبط المروحية على أرض الجزيرة. سيرفعون يونس والفتاة بالحبال تجنّبًا لتعرّض مجموعة المهمّة لأيّ خطر. لم يكن مدير الاستخبارات مُهتمًا بإنقاذ يونس، بل بمحاولة معرفة ما يحدث في الجزيرة، بالرغبة في إعادة السيطرة

على الوضع مرّة أخرى.

حاولت عُلا شراء بعض الحاجيات بعد أن قابلت المسؤول الحكومي، لكنّها وجدت أسعار كلّ الأشياء الأساسية قد زادت بوضوح. صفوف من الناس تتزاحم أمام المحالّ جامعين ما أمكن من حاجيات لأيّام آتية لا يعرفون ما سيحدث فيها. تزايدت عمليات سحب المدّخرات إلى حدّ أن اتخذت البنوك قرارًا بوضع حدّ أقصى للسحب اليومي. كان ثمّة شلل آخذ في الإمساك بأطراف حركة المدينة يومًا بعد يوم. توقف الناس عن السؤال عمَّ يحدث، مشغولين بالبحث عمّا يكفيهم من الطعام ولو لأيّام قليلة.

عادت عُلا إلى شقتها قُرب حلول الغروب. وجدت رسالة في هاتف المنزل؛ كان صوت يونس: "حاولت الاتصال بكِ. أرجو أن تكوني بخير. اتصل بي مسؤول، وأخبرني أنّهم سيأتون لأخذي من الجزيرة اليوم. يجب أن أتحرّك من المكتبة خلال ساعة إلى نقطة بعينها. سآتي إليكِ حين أخرج من هنا".

حاولت الاتصال به بعد سماع الرسالة لكن لم يكن هناك ردّ. خرج يونس والفتاة مُتدثّرين بمعطفيهما السميكين، بعدما تركا الطعام والأغطية بالمكتبة، قاطعين الطريق الطويل حتّى يصلا إلى نقطة قرب سياج الأشجار، أخبره المسؤول الحكومي أنّ المروحية سوف تُلقي لهما الحبال عندها. سيكون عليه أن يلفّ الحبل جيدًا حول كليهما متّبعًا تعليمات القوّة الخاصّة حتى

يتمكّنا من الخروج.

وقفت علا في شُرفتها تراقب مشهد المكان. كان الجوّ باردًا، فدخلت. أضاءت الغرفة، ثمّ عادت هذه المرّة للنظر إلى الخارج من وراء زجاج الشرفة.

رنّ جرس هاتفها. كان مدير التحرير يسألها عن أيّ أخبار جديدة؛ فحكت له عن رسالة يونس، وأثناء حديثها انقطع الصوت. حاولت الاتصال مرّة أخرى لكن بلا جدوى. أخذ قلقها يتراكم من الصمت المطبق الآتي من سمّاعة الهاتف. صمت كسره صوت تحطُّمٍ جاء من الخارج. بدا أنّه آتٍ من بعيد.

***

حين كان يونس يهرول ليصل إلى نقطة التلاقي، كانت المروحية تقترب حتى أصبحت فوق الجزيرة، من ناحية أحد أطرافها. شعر بأنّها ستصل إلى نقطة التلاقي قبله فأخذ يلوِّح لها. ثمّ انتبه إلى أنّها بدأت تأخذ فجأة اتّجاهات غير مُتزِنة. دارت حول نفسها عدّة مرّات، وهو يراقبها دون أن يفهم ما يحدث، عاجزًا عن فعل شيء، حتى رآها تسقط في نقطة عند أحد أطراف الجزيرة.

صعِق من المشهد. من صوت التحطّم المُفزِع. صرخت الفتاة وبكت. سمع همهمات وأصواتًا أشبه بعويل مُتقطّع لا

يعرف مصدره. وقف للحظة في مكانه. شُلّ تفكيره. عتمة تامّة استفحلت في رأسه لم يقطعها سوى الدخان المتصاعد تجاه السماء وألسنة نيران متطاولة مزّقت العتمة.

انتبه إلى نحيب الفتاة وهي ممسكة بيده. شعر بدموعها تُبلِّل ظهر كفّه. حملها وعاد بها ركضًا إلى المكتبة. حين وصل، حاول الاتصال بعُلا لكن لم تكن هناك حرارة في الهاتف. مرّة بعد أخرى بلا جديد حتى استسلم، جالسًا على الأرض الخشبية للقاعة الكبرى، والعتمة ما زالت تلفّ المكان، والفتاة لم تتوقف بعد عن البكاء.

***

خافت علا من أن تهرع إلى الشارع هذه المرة. راقبت من الشرفة الحركة المتوترة لهرولة الناس. كانت أصوات التساؤلات تصلها دون أيّ إجابة. بعد ساعة على الانفجار، لم يكن أمامها سوى أن تنزل لتعرف ما يحدث.

تدثَّرت بمعطف ثقيل. سألت أول من قابلها إن كان هاتفه المحمول يعمل فأجابها "يبدو أنّ ثمّة عطلًا في شبكات الاتصالات".

على ناصية شارع بنايتها، في تقاطعه مع الشارع الرئيس الموازي لمجرى النهر، كانت سيّارة رئيس التحرير تقترب

منها. أسرعت نحوه، سائلة إيّاه عمّا حدث.

"لم أرد أن آتي إليكِ قبل أن أذهب إلى الرجل الذي قابلناه صباحًا لأفهم. الاتصالات انقطعت عن المدينة كلها أثناء حديثنا. غرفة التحكم فقدت اتصالها مع المروحية وهي في طريقها إلى يونس".

أكمل متردّدًا: "يبدو أنّ ما سمعناه هو صوت تحطّمها"، لم يكن ينظر إليها وهو يخبرها بالأمر. بدا أنّه يُحدِّق في نقطة غير معلومة بجسد سيّارته.

"ويونس؟" سألته.

"لا نعرف شيئًا عنه".

***

في شقَّتها، تكوَّرت على ذاتها كجنين، كما تفعل دومًا دون وعي، حين تشعر بالخوف. يونس هو من نبَّهها لهذا الأمر، فازداد اهتياج بُكائها، ودون إرادة منها، دون أن تفهم كيف يحدث هذا، كانت تجترُّ وهي في سريرها، المرّة الأولى التي مارسا فيها الحبّ معًا.

أغمضت عينيها. وضعت يدها بين فخذيها، فوجدت نفسها مُبلَّلة. فشعرت بالبرد يزداد. تغطَّت بدثارات النوم. وبأحد أناملها بلَّلت مواضع رغبتها بشيء من مائها، بدأت بعدها بملامسة

نفسها دورانًا وراء آخر، برويّة، ثمّ أخذت حركة يدها تتسارع ورأسها يستحضِر تفاصيل المشهد، حين ناما معًا ثلاث مرّات في الليلة الأولى لهما.

لامست شفرتيها بأناملها، مُدخِلة أحد أصابِعها بينهما، مُمسِكة بالمشهد حين امتدّت ممارستهما من قبل منتصف الليل حتّى ظهور خيوط الضوء بالسماء.

تذكَّرت كيف كانا يملآن الوقت في هذه الليلة، بين كلّ مرّة ناما فيها معًا والتي تليها، بالحديث عن أيّ شيء يأتي إلى رأسيهما. شعرت حينها أنهما عثرا على إيقاع ممارسة للحب يشبه كلاهما، دون أن يحتاجا لأن يتحدّثا في أيّ شيء، أو يتفقا على أيّ شيء.

تسارع إيقاع يدها على عضوِها. بدت عنيفة ناحية ذاتها. كأنّها تنتقم من نفسها دون توقف حتى تدفقت مياهها بين فخذيها وعلى سريرها، وملابسها ودثار نومها.

هدأت مُستحضِرة ذكرى تسلُّل خيوط الضوء من الشرفة المُشرَّعة في شقة يونس، كاشفة بتمهُّلٍ تفاصيل جسديهما التي كانت منذ ساعات جائعة، فأخذ ينهلُ كلاهما من الآخر حتى شبعا. ثمّ جاعا، فشبعا. ثمّ جاعا، فشبعا.

نتوء ثالث

تتفاقم فيه العتمة

لا ألق في هذه المجرّة عَرَف
كيف انسلّ قلبي إلى عرائه
أيّها الموت

أطول الهجرات هي تلك التي نخوضها بين المياه الدافئة وبرودة الجنوب. لا نقطع الطريق مرّة واحدة، بل نخوضه هو ذاته، في ذهابنا إلى الدفء وعودتنا إلى البرودة. ضعف الجهد، ضعف الخطر. سبعون تتاليًا لحركة الضوء والعتمة في الذهاب ومثلها في العودة.

يغنّي الكبار دومًا في رحلاتنا. يضربون المياه برؤوسهم متباهين بقوّتهم. يدخلون في معارك صغيرة، حريصين على ألّا تتفاقم، ليوفروا جهدهم وطاقتهم لنهاية الرحلات من أجل جميلات الأسراب.

لم تُحبّ أمّي هذا كلّه. نفرت من العراكات والاستعراضات، ومالت إلى حوت أزرق وحيد رأته يحرِّر نفسه دون أن يفزع حين علق في شباك الصيد، فتركت أمّي السرب وتبعته.

مناطق الصيد تظهر كالفخاخ على امتداد طريق الرحلات.

سلال وشباك ومتاهة من الحبال. شرك مُميت. عواصف تجعل السفر عسيرًا. مياه مُتلاطمة تشوِّش الرؤية. وإذا علق أحدنا في شرك نفزع عاجزين عن تخليصه ممّا هو فيه. يتفاقم ذعره. تتداعى قواه، ولا يقوى على التنفّس، فيغرق.

أثناء العودة إلى الجنوب، شعرتُ بالإنهاك فتوقفت. لم ينتبه كلّ من أبي وأمي لي. كانت وسيلتهما الوحيدة لرعايتي هي مراقبتي دومًا. فلا أحد منهما يفهم ما أقوله. وحين أدركا غيابي، عادت أمّي لتبحث عنّي. فأمسكتْ بها الشراك، خارت قواها، وجذبني التيّار بعيدًا عنها. لم أستطع أن أقاوم تدفقه وأُعينها لتفلت من الشرك. رأيت أبي يحاول فكّ الحبال عنها، فالتفَّت من حوله. بينما أنا مُكبَّل بحركة التيّار، آخذًا إيّاي بعيدًا عنهما، حتّى غابا عن مدى رؤيتي.

غُشي عليَّ. وحين أفقت، كانت المياه باردة. كنت قد فقدت أمّي وأبي، والتيّار، دون أن أصل إلى أيّ مكان.

من حينها وأنا تائه. فقدت تيّارات دافئة طيلة عمري. لم أعرف يومًا كيف أُمسك بالتيّار. أُطلق أغانيَّ ولا أجد من يجيبها. تتناثر على جسدي عضّات الأسماك الكبيرة الهستيرية ذات الأعين الزجاجية الميتة، والحيتان السوداء ذات النقط البيضاء. دافعت عن نفسي أمامها دومًا. لم أتخاذل في أيّ عراك، دون أن أعرف لِمَ لم أستسلم للموت أمام أول من هاجمني.

سبعون عامًا من فقد التيّار، ولا أعرف حتى اللحظة، لِمَ كنت

أفقده هكذا. لمَ كنت أعود دومًا إلى المياه الباردة. منذ كان عمري سنة واحدة، حتى تمدّدي مُحتضرًا في مجرى هذا النهر الضحل، وأنا أفقد كلّ تيّار، أفقد كلّ دفء، ولم يسمع أحدٌ يومًا أغانيَّ.

أتذكّر أنّني، ذات عتمة، حلمت برأس يهتز، يتحرَّك مع أصواتي، نبراتي، وأنيني. لم يكن رأس حوتٍ. كان رأسًا بمحجرين فارغين في موضع الأعين. رأس صغيرٍ لم أره من قبل في الأفق الأزرق للمياه. ومن حينها، وأنا أبحث عنه. أتوه. أدخل تيّارات وأفقدها، دون أن أعثر عليه.

هكذا كان ترحالي دومًا، اعتيادًا للوحدة، محاولة للنجاة، حتّى وجدت نفسي في شرك مياه الخليج، ساحبًا إيّاي في مدٍّ شديد إلى هذا المجرى الطيني لنهر هربت مياهه.

وها هو المجرى يضيق بجسدي. ها هي روحي تحاول أن تتفلّت من كلّ هذا الضيق؛ تحاول مغادرة جسدي الغارق في الوحل، تاركةً إيّاي أُحدِّث الموت.

اليوم الخامس

قريبًا... يُنهَك العدمُ من الذبحِ
قريبًا... يكتب هذا الإقليم مراثيه

كانت المياه مُعتِمة. كانت دومًا مُعتِمة. سمع الأغاني تتوالى من الحيتان الأخرى. كان يتتبّع أصواتها، يستدل بها وسط كلّ تلك العتمة. كان يعرف أنّه أعمى. كان يعرف أن ليس في مقدوره مبادلتها الغناء. وكأنّه وُلِد بشيءٍ عالق في حلقه، يمنع الأنّات من الخروج إلى المياه. تتابعت الأغاني. أحاطت به من كلّ ناحية، فاحتار إلى أيّها يتّجه. لفّ حول نفسه مرّة بعد أخرى حتّى أصيب بدوار. فأخذه التيّار. شعر حينها بشيء من الخدر، ومعه كانت أصوات الأغاني تتباعد شيئًا فشيئًا، حتّى حلّ الصمت تامًّا لافًّا العتمة من حوله.

حين فتح يونس عينيه، شتَّته الظلام المُمسِك بأركان الغرفة عن الحُلم. ظنّ أنّه لم يفتح عينيه، تحسّسهما، فوجدهما مفتوحتين بالفعل. عتمة شديدة، لا شيء يظهر من ملامح المكان ولو على نحو خافت. فشعر بالخوف من فكرة أن يكون قد أصيب بالعمى في نومه.

قام من موضِعه. تلمَّس الأشياء بيديه. حين وصل إلى باب الغرفة، أخذ يتحسّس الحائط باحثًا عن زرّ الضوء. ضغطه مشعلًا إيّاه لثانيتين. كان فقط يريد التأكّد من أنّ المكان على حاله، وأنّه ما زال يبصر. أطفأ الضوء، ثمّ عاد إلى موضع نومه، وهو يخرج زفيره متقطّعًا من أثر لهاث، ورأسه لا يزال يشعر بالدوار.

في السادسة صباحًا، حيث اعتاد جسده أن يفيق، فكّر في الذهاب إلى موضع تحطُّم الطائرة. كان في الأمر مخاطرة، لكنّ حاجته لأن يفهم ما يحدث كانت تلحّ عليه. نزل إلى القاعة الكبرى بالمكتبة، رفع سماعة الهاتف محاولًا الاتصال، لكن لم تأته أيّ إشارة على أن الاتصالات عادت.

جلس إلى مكتبه. كان مُحتارًا خائفًا من الخروج. لم يكن الوجود قد اتّضحت معالمه بعد. من النوافذ الزجاجية الطويلة في قاعة المكتبة، لا يزال الضباب يقوِّض رؤية المكان. على المكتب، ثمّة بعض الكتب المُعادة بعد انتهاء فترة استعارتها. ظلّت في موضعها، دون أن تعود إلى أماكنها على أرفف المكتبة، منذ آخر يوم قبل العطلة. حدّق في كومة الكتب شاردًا. لمح رواية "العمى" لساراماغو. تذكّر أنه يعرفها من وقت قريب، حيث استعيرت أكثر من مرّة منذ جاء إلى المكتبة.

"العمى!" فكّر.

تذكَّر الحُلم. كان حوتًا أعمى. من جديد، كانت المياه المُعتِمة، وأصوات الأنّات تأتيه من جنبات المياه. لكن هذه هي

المرّة الأولى التي يحلُم فيها بأنّ دوارًا قد أصابه. المرّة الأولى التي يشعر في حلمه بأنّ حلقه مسدودٌ منذ لحظة ولادته.

أمسك بالرواية. تفحّصها بشيء من القلق. في أولى صفحاتها كان الاستهلال: "إن كنت تستطيع أن ترى، فانظر. إن كنت تستطيع أن تنظر، فراقب".

أُخِذ. لكنّ شعوره بالبرد نزعه من المفاجأة. قام ليعدّ شايًا. راقبَ حركات البخار المُتمايلة في تصاعدها من الكوب، ماضغًا رغيف الخبز بالجبن بتمهّل وشرود. كان الكتاب أمامه، ينظر إليه ولا يعرف لِم يحيِّره هكذا. ترك كوب الشاي. أمسك بالرواية، وبدأ يقرأ.

***

حين أفاقت عُلا من نومها، وجدت سروالها الداخلي لا يزال فيه أثر بلل. لم تفهم كيف اجترَّت كلّ تلك الأشياء التي استثارتها برغم القلق والخوف اللذين تملّكاها ليلة أمس.

قامت لتُشعِل سخّان الحمّام. فتحت صنبور المياه لتغسل وجهها. نزلت المياه منه ضعيفة. شعرت بها مالحة حين تسلل بعضها إلى شفتيها. ملأت كوبًا بالماء لتشرب. لكنّها لفظتها مُتقزِّزة. كان يشبه طعم ماء البحر.

تخلَّت في تلك اللحظة عن فكرة الاستحمام. غيَّرت سروالها

الداخلي. ارتدت أكثر من طبقة ملابس وخرجت. استقلّت سيّارتها. كان مؤشر الوقود يخبرها بضرورة إعادة ملء الخزان.

شغّلت محطّة الأخبار في الراديو. لم يكن هناك جديد. في كلّ مرّة تسمع الأخبار يتأكّد لها أن لا أحد في هذه المدينة يعرف ما يجري فيها. شعرت بنفور من صوت مذيعة الراديو وهي تكرِّر الأخبار نفسها. أخذت تتنقّل بين محطات الراديو حتى توقفت عند واحدة مُخصّصة للموسيقى.

بعد ثوانٍ قليلة من الاستماع، عرفت اسم المقطوعة التي كانت يعلو إيقاعها بالتدريج.

"Silent Whale Becomes A Dream – As Walking On Canopy"، قالتها بصوت خفيض لنفسها، وهي تتذكّر أحلام يونس المتتابعة حين كانا معًا.

"ألا يزال الحلم يأتي ليونس!؟"، سألت نفسها.

تذكّرت سلسلة الأحلام التي كانت تأتيه حين كانا معًا. لم تعرف كيف يمكن للمرء أن يشعر بنفسه حوتًا ولو في نومه. تتذكّر أنّه هو من أسمعها هذه المقطوعة للمرّة الأولى. كان الأمر مُخادعًا بالنسبة لها. تبدأ الموسيقى بداية هادئة، بفواصل صمت متكرّرة، ثمّ يبدأ إيقاعها بالتصاعد حتى تتأكد قرب نهايتها أنّ تلك التي كانت هادئة في البدء، هي في حقيقتها مزيج من الروك وكونشرتو كمان وكونترباص.

وصلت إلى مبنى البث الإذاعي. كانت تريد أن تعرف من

رئيس التحرير إن كان هناك جديد. هو خيط وصلها مع عالم المدينة في هذه اللحظة.

رأت على وجهه آثار نوم سيّئ حين دخل إلى المكتب. سألته عن يونس، وعمّا حدث أمس.

"لا جديد"، قالها سريعًا.

أردف، "اسمعيني، لا يبدو أنّ شيئًا ما سيتضح قريبًا. ما عليكِ أن تفعليه الآن هو أن تتدبّري شراء ما يكفيكِ من الطعام لأسبوعين على الأقل. خزِّني ما تحتاجين إليه من الطعام. املئي سيّارتك بالوقود قبل أن ينفد من المحطات. ولا تغادري البيت هذه الأيّام، خاصة في الليل إلّا إن كان هناك أمر طارئ".

حاولت أن تستوضح أكثر. شعرت بأنّه على علم بما يحدث. فهو لم يخبرها بأيّ تفاصيل من الحديث الذي دار بينه وبين المسؤول الحكومي قبل أن يأتي إلى ناصية بيتها أمس. لم يخبرها أن لا مصانع ولا مصالح حكومية ولا محطات كهرباء أو مياه تعمل كما هو معتاد. لم يخبرها أنّ الأشياء تتداعى. وأنّ المكان يحتضر. وأن لا سبيل لإيقاف ذلك.

كان لديها ما يكفي من الطعام لأسبوع. لم تفكّر أن تفعل مثلما قال. لكنّها لمست شيئًا ممّا يحدث؛ حين مرّت على ستّ محطّات وقود في طريق عودتها ولم تكن أيّ منها تعمل. عرضت على عامل إحدى المحطات نقودًا أكثر لكنّه أخبرها وعلى وجهه رتابة من تكرار الجملة:

"ليس هناك وقود منذ أمس. هناك محطات ليس لديها وقود منذ ثلاثة أيّام. جرِّبي الذهاب إلى محطة الطريق السريع، عند مخرج المدينة. لكن لا شيء مضمون".

***

أثناء سيره نحو موضع الانفجار، رأى خيط دخان رفيعًا لا يزال يتصاعد من المكان. كان يفكِّر في ما قرأه في "العمى". شعر بأن ثمّة خيط وصل ضبابيًا بين الأشياء كُلِّها.

في ناحية كثيفة من غابة الأشجار، بعيدًا عن الجسر المُتهدِّم، كانت الطائرة المروحية محطَّمة مُتفحِّمة. جفل يونس حين لمحت عيناه المشهد من بعيد. تلفّت في دورة كاملة حول موضعه وكأنّه يبحث عمّن يخبره بما يحدث، عمّن يُفهِمه شيئًا من ذلك كله، لكنّ الطرقات كانت خاوية كما هي حالها منذ أيّام.

كان يفكّر في الاقتراب من حطام الطائرة، حين سمع صوت خشخشة أقدام على العشب. فاختبأ خلف جذع ضخم لشجرة زيتون مراقبًا ما يحدث. كانا رجلين متّسخين، ملابسهما رثّة. كانت حركة سير كليهما غير متزنة، لكنّهما بدوَا يسيران نحو هدف بعينه.

رأى الرجلين يسحبان من بين حطام المروحية أشلاء جثّة بزيّ عسكري مُحترِق. أعان كلّ منهما الآخر على جرِّها بضعة أمتار،

ثمّ حملاها معًا، وعادا مسرعين إلى موضع كثيف من الغابة. ازدرد ريقه بصعوبة، لم يصدّق ما يراه. لم يعرف ماذا يفعل. شعر بذعر من الوحشية التي رآها على وجهي الرجلين.

انتظر حتّى توارى الرجلان بين الأشجار. وقبل أن يتراجع بظهره ليخرج من الغابة، رأى رجلًا آخر يخرج من حيث أتى الاثنان. لم تكن ملامحه أو ملابسه غريبة عنه. كان حاكم المدينة، أكثر اتساخًا، أكثر رثاثة. راقبه يونس وهو بين الرغبة في معرفة ما سيفعله، وانتظار لحظة مناسبة ليخرج من موضعه هربًا من المكان. بدا الرجل هزيلًا على نحو أوضح، حين مرّ مُقتربًا من ناحية يونس. اتّجه إلى الطائرة، مُتفحِّصًا إيّاها بعينيه ويديه كطفل غاضب، ثمّ ابتعد عنها عائدًا إلى ما بين الأشجار الكثيفة.

تحرَّك يونس تجاه الموضع الذي توارى وراءه الرجل. كان فراغًا تحيط به الأشجار على نحو دائري. رأى حاكم المدينة يجمع أغصانًا رفيعة ويجمعها في كومة. بالقرب منه كان الرجلان ينزعان الملابس المحترقة عن الجثة. لم يكن أيّ من ثلاثتهم يتحدّث مع الآخرين.

جلس حاكم المدينة مسندًا ظهره إلى جذع شجرة كبيرة بعدما كوَّم في منتصف الدائرة كلّ ما وجده من أغصان رفيعة. كان يشاهد الرجلين، أحدهما يحاول إشعال كومة الأغصان، والآخر يجرّ الجثة ناحيتها.

ببطء، تراجع يونس بظهره محاولًا الخروج من مكان اختبائه.

تلفَّت بين لحظة وأخرى إلى جانبيه وخلفه. وحين لمس أسفلت الطريق الموازي لسياج الأشجار، شعر بقدميه تجريان وحدهما خوفًا. كان نبضه يضرب جسده كلّه بعنف. أنفه ترشَّح، وعيناه تدمعان من الهواء البارد. كان المشهد يتكرَّر في رأسه متقاطعًا مع مشاهد من "العمى". أيّهما حقيقي وأيّهما متخيّل! اختلطت المسارات في ذهنه دون قدرة على الفصل بينها. لم يشعر كم ركض، أو أيّ طريق أخذ إلّا حين وصل إلى المكتبة مُقفلًا بابها بالمفتاح والمزلاج.

***

كيف لي أن أكتب حدثين وقعا في الوقت نفسه. كيف يمكن أن أجعلهما يصلانك في الوقت نفسه كما حدثا في اللحظة نفسها. كيف أقسِّم الزمن كتابة؟ أأقسِم الصفحة نصفين عموديًا؟ كاتبًا كلّ حدث في نصف؟ ليس هذا بحلٍّ. ستقرأ حتمًا أحدهما قبل الآخر. لا اقتسام للزمن في الكتابة. لا عين يمكنها أن تكون حاضرة في أكثر من مكان في الوقت نفسه. لا حيلة لي سوى أن أستسلم لحتمية اختيار كتابة أحدهما قبل الآخر.

كان الوقت غروبًا، وضوء المدفأة اللهبي يتسلَّل إلى أركان الغرفة العلوية بالمكتبة. جلس يونس أمام النافذة. لا يزال يفكّر في ما حدث اليوم. الغيوم تتكاثف في السماء منذ بداية النهار.

وكلما ظنّ أنّها سترتضي بحالها، يجدها تزداد تكاثفًا. حتى الشفق الأحمر بدا باهتًا من ورائها، مُلقيًا بأثره على البنايات والطريق وغابة الأشجار المُحتمية بالبتولا البيضاء كطوق يواجه النهر العكِر.

في اللحظة نفسها، كانت عُلا تجلس في سيّارتها، مُغلِقة زجاج النافذة لتحمي نفسها من هواء بارد يحاصر المدينة منذ بداية النهار. لم تجد وقودًا لسيّارتها. ولم يكن في إمكانها أن تبحث في محطات أكثر؛ خافت أن ينفد الوقود من سيّارتها وهي في مكان بعيد فتضطرّ للعودة سيرًا إلى شقتها. شردت في المشهد المتكاثف للغيوم، متأمّلة مشهد الغابة على ضفة الجزيرة وهي تفكر في ما يمكن أن تفعل لكي تصل إلى يونس.

كانت تقف بسيّارتها على أحد جوانب الشارع الموازي لمسار النهر، غير بعيد عن مكان شقتها. لم تتذكّر احتياجها إلى بعض الأشياء إلّا حين حوّلت نظرها عن جهة النهر، الجزيرة، وغابة الأشجار، إلى الجهة العكسية، حين لفت انتباهها أنّ أحد محالّ البقالة ليس مزدحمًا بالناس.

حين دخلت إلى المحلّ عرفت أنّها كانت مخطئة؛ المكان مُزدحِم. أكثر من صفّ ينتظر دوره أمام ماكينات الدفع. خادعها كون الزحام لم يمتدّ إلى خارج المحل. اختارت حاجات قليلة لشرائها. أخذت مكانها مُنتظِرة في نهاية أحد الصفوف، شاردة من جديد في المشهد الخارجي، الجزيرة، غابة الأشجار، ويونس.

كان الأفق يزداد عتمة. الشفق ينسحب من امتداد السماء. وصفّ من المشترين يتحرّك ببطء. صوت شجار يتعالى من حين إلى آخر بين أحد الباعة والمشترين. كلّ من يأتي دوره يريد أن يأخذ أكبر قدر ممكن من الحاجيات، والباعة يعرضون الأشياء بضعفي أثمانها أو ثلاثة أضعافها، فيبدأ الجدال في كلّ مرّة، منتهيًا باضطرار من يشتري إلى ترك بعض الأشياء واختيار الأولويات من بين ما يحتاج إليه.

لم يُحذِّر أحد الناس. لم يطلب منهم أحد أن يؤمِّنوا الطعام في منازلهم لأسبوع أو عشرة أيّام. لكنّ للمكان حدسًا يلقي بظِلّه على أرواح من فيه. المكان يخاف. الأشجار تخاف. الطرق تخاف. مياه النهر تخاف. فيخاف الناس.

حين هربت الخيوط الأخيرة للضوء من السماء لتلحق بما سبقها، وأمسكت العتمة بأطراف الأفق، ألقت أعمدة الإنارة بأضوائها الشحيحة على الأمكنة والطرقات، قبل دقائق قليلة من إحكام العتمة طوقها على المدينة. انتبهت عُلا من شرودها عندما أنير المحلّ. احتاجت للحظات حتى تسترجع لِمَ هي هنا. لكنّها لم تكد تدرك الأمر حتى انطفأ الضوء ثانية. لم يكن ضوء المحلّ هو فقط الذي انطفأ، بل أعمدة الطرقات، والأضواء الشحيحة القادمة من الجهة الأخرى حيث الجزيرة هي الأخرى تلاشت.

احتشدت همهمات داخل المحلّ. أصوات الباعة تطلب من الصفوف أن تظلّ كما هي عليه. كان الظلام يملأ كلّ فراغ

في الداخل. يتمدّد في مدى المكان بالخارج. تعالى القلق في هنيهات بصدور الناس. لم يدم الالتزام بالأمكنة أكثر من دقيقة، فصارت الفوضى وكأنها حتمية لا مفرّ منها. صراخ، كلّ يحاول أخذ ما يستطيع ويهرب. لم يكن لأحد وسط اللاروئية تلك أيّ سلطة. خطف وهرب من عتمة الداخل، وهرولة إلى عتمة الخارج.

كل ما فكّرت فيه عُلا هو أن تحمي جسدها من التدافع الوحشي. احتمت بزاوية داخل المحلّ منتظرة أن يهدأ الصخب المجنون. انفلت كيس الحاجيات من يدها من أثر الفزع دون أن تنتبه له. خرجت بعد دقائق متردّدة مُتحسِّسة الطريق إلى البناية. لم يكن معها حين وصلت إلى باب شقتها شيء ممّا اشترت. لم يكن بها سوى امتلاء بالتعب والخوف.

انقطعت الكهرباء عن المدينة كلِّها. البرد واللافهم جعلاها ترتعش حدّ الإنهاك. لم تستطع حتّى أن تغيّر ملابسها. تكوَّرت في سريرها، مغطّية جسدها بثلاثة دثارات ثقيلة لاستجلاب شيءٍ من الدفء والسكينة.

***

من نافذة الغرفة العلوية في المكتبة، كان يونس يراقب الشارع المنغمس في عتمة تخلّلتها التماعات نجوم مُتناثِرة، حضرت مع

تخلّي تكاثف الغيوم عن سماء المكان في الليل. عاد بذهنه سبع سنوات، حين كان في شقته القديمة بالمدينة، يجلس إلى مكتبه المواجه لنافذة غرفة نومه، حيث اعتاد أن يترك نفسه لشرود جلسات أول نصّ طويل يفكّر أن يكون نواة مخطوط شعري.

تذكَّر مراقبته للحركة البطيئة للسيّارات والناس في تلك الليلة، وأنّه أعتاد أن يسمع وقتها مقطوعة "رحلة صامتة، والنوم فجرًا" (Silent flight, sleeping dawn)، حين رأى علا تسير في الطريق الذي تطلّ عليه نافذة شقته القديمة. لم يكن في استطاعته حينها أن يفعل أيّ شيء سوى أن يترك ما كان يقوم به ويهرول إلى الطريق ليتحدّث إليها، مُستعيدًا رؤيته لها قبل ذلك بأيّام وتبادلهما حديثًا قصيرًا خلال معرضها.

يتذكَّر الآن كم كان للمصادفات من أثر في مسارات عيشه المُرتبِك. هذه المقطوعة التي كان يسمعها وقتها ظلّت حاضرة بكثافة في سبع سنوات عاشا فيها معًا. في أوقات القراءة، في ليالي الأرق، وحتّى في بعض أوقات ممارستهما للحبّ معًا. حين يكون الوقت صيفًا، يشرّعان الستائر ويفتحان نافذة غرفتهما. يُظلمان المكان، ويعثر كلاهما على تفاصيل الآخر على أثر الأضواء الشاحبة الآتية من النافذة، من خارج محارتهما في لحظات انفتاحها المحدود على المكان.

احتار؛ لِمَ يسترجع هذه المشاهد كلها الآن! أهو ذهنه يرغب في تشتيته عن ثقل ما يحدث؟ كانت الفتاة نائمة. الجوّ بارد.

الكهرباء المنقطعة حرمتهما من المدفئة. حين اشتكت من البرد، غطّاها بأحد غطاءيْ نومه مُكتفيًا بواحد. لكنّ ذهنه لم يكن قادرًا على الاسترخاء حدّ النوم برغم الإنهاك.

نزل إلى قاعة القراءة على ضوء شمعدان فضّي قديم. بدا المكان في العتمة التي تخللها الضوء النحيل للشمعدان، والقاعة بسقفها العالي وقبّتها، وكأنّه دير عتيق. هو الذي فقد الإيمان منذ وقت ليس بقليل، شعر بحضور إيماني مُبهَم، أفاق منه سريعًا، وهو يذكّر نفسه بأنّه نزل إلى القاعة لجلب "العمى"، في محاولة لطرد الأرق.

***

في منتصف الليل، أفاقت عُلا من نومها على حُلمها المُتكرِّر: قطة صغيرة عمياء تسمع طيلة الوقت أنينًا غريبًا ذا إيقاعات ثابتة كأنّه أغنية ما.

قامت سريعًا من سريرها؛ كانت تشعر برغبة في الذهاب إلى الحمّام. ثلاثة دثارات لم تكن كافية لتشعر بالدفء. لا تزال الكهرباء مُنقطِعة. نظرت من النافذة. فوجدت الطريق مظلمًا، وكذلك كانت حال نوافذ شقق البنايات المُجاورة.

فكّرت في فرن الفخار. ربما يجلب لها بعض الدفء. لا يزال في إمكانها إشعال الفرن القديم بالغاز.

كان البرد شديدًا على السطح. زادت حركة الرياح مع إيغال الليل. انفتح الأفق على نثار النجوم. جلست تحت الركن المسقوف أمام الفرن مباشرة. تلفّعت بشال حول صدرها وفمها وأنفها لتحمي نفسها من الهواء الذي شعرت بأنّه مسمومٌ من صرامة البرد. تحسَّن الأمر حين بدأ الفرن يغمرها بشيء من دفء لهبه.

ضمَّت ساقيها مسندة ظهرها إلى الحائط. رفعت رأسها إلى السماء. شردت مع تشكيلات النجوم وتذبذبات أضوائها. ذكّرها المشهد بكلمة "السديم" التي كانت تظهر أحيانًا في قصائد يونس. أحبّت دومًا قصائده، قِصرها وكثافتها. لكنّها لم تستطع إقناعه طوال فترة عيشهما معًا بمحاولة جمع بعضها ونشره. كان مُمتلئًا بقناعة عنيدة باللاجدوى من وراء النشر.

"الشخص الوحيد الذي أرغب في أن يقرأ لي هو أنتِ. أنا بخير ما دمتِ تُحبّين قصائدي". هكذا كان يخبرها، فتستسلم أمام عناده.

شعرت بالجوع والنعاس حين أصبح جسدها أكثر دفئًا. لكنّ قلقها على يونس وجزعها، ومحاولتها التفكير في طريقة تعرف بها شيئًا عنه أبعدا عن رأسها بعضًا من إلحاح الجوع، حتّى غفت في موضعها.

اليوم السادس

أنت الأبجدية التي لا تُفصِح

فلتضِقْ بك جهاتك... حتى ليضيع الهواء عن الهواء

أُخِذ بحلمه. نسي أن يصعد إلى سطح المياه ليتنفس. حين أفاق، اعتدل من اتّزانه الرأسي المُتجِه ناحية القاع، صاعدًا برأسه إلى السطح، تاركًا فتحات الهواء تشهق وتزفر. حاول أن يتذكّر الصوت الذي أتاه في حلمه. كان صوت امرأة تغنّي على سطح سفينة عبرت بجواره في ترحاله الليلي.

وبينما كان يحاول أن يفيق من حلمه، أتاه صوتٌ زاعقٌ من سفينة ليست ببعيدة، يكرّر، "إلى الشمال... الحوت يتّجه ناحية الشمال".

زاد من سرعته، وعلى نحو أقوى كان يسبح مُبتعِدًا وهو يسمع صوت التروس تعدُّ الرماح. أخذ شهيقًا كبيرًا ثمّ اتجه لأسفل، وفي نزوله أُطلِق الرمح. لم يُصِبه، لكنّه شعر بجلدِه يُكشط من أثر حفيف النصل بظهره.

فزِع يونس في نومه. تحسَّس ظهره. نظر تجاه النافذة. لا يزال ضوء الصباح شاحبًا، يتعثَّر أمام عتمة الأفق. وضع رأسه

على وسادته من جديد ناظرًا إلى السقف مستعيدًا تفاصيل الحُلم.

"سفن صيد الحيتان"، قالها بصوت خافت.

كرّرها مرّة أخرى. لم يستطع العودة إلى النوم. نزل إلى القاعة الكبرى. على ضوء الشمعدان، أخذ يدور بين اللوحات الزيتية المُعلّقة أعلى أرفف الكتب، حتى وصل إليها. كان التوصيف مكتوبًا على ورقة صغيرة ملصقة بداخل الإطار الزجاجي أسفل اللوحة: "سفن صيد الحيتان، جوزيف مالورد ويليام تيرنر، ١٨٤٥".

في حلمه، شعر يونس بأنّ روحه كانت في جسد حوت مُطاردًا من هذه السفينة الظاهرة أمامه في اللوحة.

ظل بضع دقائق واقفًا مُتأمِّلًا تفاصيل العمل. شردت عيناه تجاه نافذة زجاجية قريبة ذات نقوش قوطية باهتة. ومنها رأى السماء في الخارج مُلبَّدة.

"لِمَ لم تمطِر، كما هي عادتها في هذا الوقت من العام؟" سأل نفسه.

لم يكن يعرف ماذا سيفعل اليوم. أينتظر في المكتبة أيّ جديد قد يغيّر من وضع يزداد سوءًا في كلّ لحظة، أم يخرج؟ ثمّ إلى أين يخرج؟ كان يفكّر في هذا كلّه وهو في طريقه إلى الحمّام. وضع الشمعدان في مكان قريب من صنبور المياه. فتحه، لكن لم تنزل المياه. لم تُجدِ محاولات فتح الصنبور وغلقه أيّ نفع. شعر بضيق في صدره، بعجز يستفحِل ولا حيلة لديه لأن يوقفه.

"لا اتصالات، لا كهرباء، لا ماء. المكان يضيق، وأنا هنا

حبيس ما لا أعرفه".

كان الضباب على حاله مثل كلّ صباحات الشتاء هنا. لم يوقِظ الفتاة ليخبرها أنّه ذاهب إلى منزلها ليرى إن كان يوجد ماء.

ظلَّ يتلفَّت في كلّ خطوة نحو المنزل خوفًا من أيّ مباغتة مُحتمَلة. وجد الباب مغلقًا حين وصل. خشي أن يحاول فتحه. خشي أن يكون في الداخل أحد. بالنسبة إليه، كل باب مغلق في تلك اللحظة قد يكون وراءه من سيخرج ليهاجمه، يضربه، ويسحله على الأرض. وكلّما مرّت الهواجس في رأسه، شعر برجفة في كلّ جسده. رجفة مُغايرة لتلك التي تتملَّكه من أثر البرد.

عاد مُسرِعًا إلى المكتبة. أيقظ الفتاة: "سأذهب إلى النهر. المياه مقطوعة ولم يعد لدينا ما يكفينا من الماء سوى للغد".

"لا تتركني، أنا خائفة"، قالتها ونشيج خافت أخذ يظهر في نبرتها.

"لا أستطيع أن آخذك معي. المكان هناك ليس آمنًا. ستكونين بخير في المكتبة".

ضمّها إلى صدره مُكمِلًا: "بعد قليل سيتلاشى الضباب، فلا تنظري من النوافذ، حتّى لا يلحظكِ أحد. لا تخافي؛ لن أتأخر".

كانت المرّة الأولى التي يضمّها فيها بهذا القرب. استغرب حركة جسده ناحيتها، وخوفه عليها؛ هو الذي لم يشعر يومًا بمشاعر أبوّة أو حنين كالتي يشعر بها الآخرون حين يرون أطفالًا صغارًا. تذكَّر أنّ عُلا لم تفهم يومًا كيف لا يشعر بهذا الأمر. فيردّ

بسخرية من حاله: "يبدو أنّه عيب في تصنيع المُنتج".

أخذ معه وعاءً كبيرًا يشبه أوعية دهانات الحوائط، وعدة زجاجات بلاستيكية. قرّر ألّا يذهب إلى النهر قرب موضع تحطُّم الطائرة، وأن يقطع طريقًا آخر مُتقاطعًا مع الطريق الذي يقسم الجزيرة نصفين. أراد أن يصل إلى النهر قرب شاطئ البحر. كان بذلك سيأخذ وقتًا أطول، لكنّه كان مشوّشًا. فاجأهُ دماغه بالحلّ إلى حدّ أنّه لم يتردّد في اختياره، ولم يفكر في البحث عن غيره.

كان الضباب يرفع يده عن المكان، ويونس مُمتلِئ بالإنهاك في خضمّ قطعه للطريق. ورغم حركة سيره المُسرِعة، ظلّ دماغه مُلبَّدًا غائمًا: "حين يُظهِر الطريق تفرّعه المتّجه نحو مُستنقعات المِلح، سآخذ الاتجاه المقابل لأصل إلى الموضع القديم لمراكب الصيادين".

أكمل وهو يفكّر بصوت مسموع أثناء سيره: "قد يكون هو الموضع الأكثر أمانًا لجلب المياه. الأشجار أقلّ هناك. يمكنني التأكد من خلاء المكان قبل أن أتحرّك نحو المياه".

رفع يونس رأسه إلى السماء. كانت الغيوم كثيفة "لماذا لم تمطر حتى الآن؟".

بدت البيوت صامتة، وكأنّها نائمة، أو ميتة، أو مغشيّ عليها. ضوء النهار الرمادي الشاحب يلُفُّ المكان. لا حياة، لا حركة، لا شيء سوى سكون تخدشه حركة الريح في مرورها بالأشياء.

انتبه أثناء سيره إلى أنّ ثمّة علامات حمراء على جدران

البنايات والمنازل. ظنّ في البداية أنّها عيوب طلاء. لكنّ تكرارها لفت انتباهه. اقترب من إحداها، فوجدها خطوطًا مستقيمة ورسومًا بسيطة لا تشير إلى شيء واضح. حاول أن يعرف إلى أيّ شيء نرمز لكنّه لم يفهم شيئًا.

استمرّ في سيره مُنتبِهًا أكثر لتكرار العلامات والرسوم. كان قلقه يزداد كلما ازدادت أعدادها في خضم قطعه للطريق. فوَّت الموضع الذي سيأخذ منه الطريق مُتّجهًا ناحية المرسى القديم، ثمّ عاد فزعًا حين انتبه، قاطعًا إيّاه هرولة.

في نهاية الطريق، عبر أرضًا ترابية غير إسفلتية حتّى يصل إلى المرسى. لم يبقَ من المراكب والقوارب التي كانت تزدحم هنا في وقت مضى سوى قاربين صغيرين. اقترب وتفحّصهما. وجد أحدهما مُتهالِكًا، والآخر بدا أنّه لا يزال يعمل.

بجوار المرسى، كان هناك كوخ صغير يتصاعد من مدخنته القصيرة خيط دخان ضعيف. ابتلع يونس ريقه بصعوبة وهو يقترب من نافذة الكوخ. سمحت له شقوق في جسد النافذة بأن يرى موضع موقد الحطب، وسريرًا قديمًا تظهر عليه قدما رجل مغطاتان بجوارب صوفية شتوية مرقّعة.

تسلَّح بغصن شجرة قويّ وهو يقترب. أصدر الباب الموارب أزيزًا وهو يفتحه. حين دخل لم يكن الرجل النائم وحده في الكوخ؛ وجد امرأة أربعينية وفتى في بداية مراهقته. كان ثلاثتهم نائمين، مُتكوّرين في وضع الجنين. الرجل على السرير، والمرأة

والفتى معًا، وجهاهما متقابلان، فوق فراش على الأرض.

اقترب يونس من الرجل. كان وجهه عجوزًا شاحبًا وجسده متصلبًا لم يخلُ من دفء بعد. وضع يده قرب أنف الرجل. كان لا يزال يتنفَّس. هزّ الجسد المتكوِّر لكنّه لم يتحرَّك. اتّجه إلى المرأة والفتى. كرَّر الأمر نفسه معهما لكنّهما لم يستجيبا أيضًا لمحاولة إفاقتهما. وكأنّهم في غيبوبة كاملة.

بلا حيلة وقف يونس ينقّل نظره بين الرجل العجوز والمرأة والفتى. تسلّل لثوانٍ شعاع ضوء نحيل من بين الغيوم الكثيفة لامسًا العشب الرطب عند مدخل الكوخ، مختفيًا من جديد. خرج يونس من الكوخ شاعرًا بفراغ وحزن مبهم. عبر سياج الأشجار النحيل ناحية المرسى. تجمَّد في موضعه حين رأى المكان. سقطت الزجاجات البلاستيكية الفارغة والوعاء. تراجع بظهره وهو يحرِّك رأسه يمينًا ويسارًا. كان مجرى النهرِ شبه جافٍ مُظهِرًا طين قاعه.

على امتداد مسار النهر كان المشهد هو ذاته، لا ماء، لا شيء سوى أسلاك الشبكة الكهربائية المحيطة بالجزيرة. جرى تجاه البحر. وجد مياهه مُنحسِرة. جَزْرٌ لم يَرَ مثله من قبل، سحب المياه بعيدًا عن الشاطئ بعشرات الأمتار. بدا النهر والبحر كمستنقع وحلٍ مُمتدٍّ بلا نهاية.

***

لفّ الخرس ألسنة جميع من كان في غرفة مبنى الاستخبارات. كانوا قد قرّروا أنّهم سيجتمعون اليوم ليحاولوا إيجاد حلّ لمشكلة الخزان المُقفل والمياه المنحبسة وراءه، بينما يرون منسوب مياه النهر يقلّ شيئًا فشيئًا في الأيّام الماضية. فأتى انحسار مياه البحر اليوم، ليُصيب أدمغتهم بالعجز وانعدام الحيلة.

ليس في إمكانهم سوى إرسال أحد ضبّاط الجيش إلى العاصمة، لمحاولة طلب النجاة من هذا الجدب الذي يستحكم في إمساكه بالمكان.

ليس في إمكانهم سوى أن تمرّ عربات المياه في الشوارع. لن تكفي مياهها أكثر من نهار واحد.

ليس في إمكان الراديو أن يبثّ نداءات بأنّ عربات المياه ستجوب الشوارع لأن لا إشارات لاسلكية في سماء المدينة.

ستمرّ عربات المياه، في الشارع الموازي لمسار النهر الأقرب للجفاف. وسينفخ كلّ سقّاء في بوقه أو يضرب بجرسه، أو يصيح بصوته رافعًا رأسه تجاه الأفق، آملًا أن يصل النداء إلى أقصى ما يستطيع، عارفًا أنّه لن ينتظر طويلًا حتى يرى الناس يهرعون إلى جهته.

قرع يتعالى، أبواق تصدح، وصياح يعلو، قطعت جميعها نوم عُلا، حُلمها، قطعت موسيقى الحُلم، لم تحلم بالقطة هذه المرّة، لكنّها لا تذكر من حُلمِها سوى صوت موسيقى بحور ميتة (Dead Seas) لأرماند آمار.

لا ماء ينزل من صنبور المياه. كانت أكثر إنهاكًا من أن تغضب.

أنهكها الحُلم، والنوم المتقطع، والبرد، وتقاطع أصوات الأبواق والأجراس والصياح.

لم تَر شيئًا من شرفتها سوى هرولة الناس من العمارات إلى طريق النهر. خافت أن تنزل. وطأة الوهن جعلتها تُفكِر أن لا طاقة لها على أن تدخل وسط هذا الزحام.

كان السطح هو الحلّ الأكثر أمنًا لتعرف ما يحدث. بقرب فخاراتها التي تهشَّمت أثناء عملها، الفُخّارات التي لم يكتمل خلقها، فوُضعِت في إحدى زوايا المكان بعيدًا عن الجانب المسقوف، وقفت علا واجمة تنظر إلى مشهد النهر الضحل. شعرت بنبضها قد توقف للحظة عن دفق الدم. شعرت بأن لا خفق في جسدها، وأنّ رئتيها قد تخلتا لهنيهة عن أخذ الهواء أو فكّ أسره. ومرّة أخرى، عادت موسيقى الحلم تتسلَّل إلى دماغها.

عربات تحمل صهاريج مياه تقف في مواضع مُتباعدة بعضها عن بعض في الطريق الموازي للنهر. والناس من حولها يتعالى صياحهم، مُتكدّسين مُتدافعين ليحملوا أقصى ما يستطيعون من مياه.

"لماذا لم يفتحوا الخزان؟" تساءلت.

أمام عينيها، ناحية الجزيرة، بدت أشجار البتولا مُستسلِمة لتخلي اللون الأخضر عن أوراقها. وبعد ساعة من محاولتِها الإلمام بالمشهد، تعِبت من الوقوف. جلست في مكانها منهكة،

ناظرة نحو السماء المُغتمّة، "لماذا لا تمطر؟!".

***

ظلّ يونس صامتًا منذ عاد إلى المكتبة. جلس قبالة الفتاة شاردًا في النعاس الذي أخذ يتراكم على وجهها.

"سنستيقظ غدًا باكرًا. نأخذ ما نستطيع معنا من حاجيات، ونذهب لنعبر إلى ضفة المدينة من ناحية شاطئ البحر". أخبرها بصوت هادئ مُحاولًا ألّا يفزعها قراره.

"كيف؟ ومياه النهر؟" سألته وبدا النعاس يتراجع أمام المفاجأة.

"المياه في جزر شديد. يجب أن نعبر قبل أن تعود وترتفع مرة أخرى".

صمتت الفتاة، كان فمها منفتحًا كأنّها تحتاج لأن تقول شيئًا لا تعرف ماهيته.

أكمل يونس "خلال يوم سينفد ما لدينا من طعام. لم يعد لدينا إلّا زجاجة مياه واحدة. يجب أن نخرج من هنا".

استسلمت. تفكّك أثر القلق المُمسِك بوجهها من ثقل التعب. كان النعاس يغالبها. وبمرور الوقت، لم يعد في استطاعتها مقاومة النوم. غطّاها يونس جيدًا. ثمّ عاد إلى الجلوس في موضعه قرب النافذة. كرَّر بصوت خفيض لنفسه وهو ينظر من النافذة إلى

العتمة التي تملأ المكان، مُحرِّكًا رأسه مُتمايلًا مُغمضًا عينيه في نصف إغماضة "لاكريموزا... لاكريموزا!".

على ضوء الشمعدان الفضّي، أمسك بدفتره الأزرق وقلمه الحبر الأسود، بدأ يكتب كأنّه يُحدِّث شريكًا متخيَّلًا لأفكاره:

أفكّر دومًا أنّ زادي سميث ربّما كانت مشوّشة في وصفها موسيقى موزارت بروايتها "عن الجمال". رغبتُ دومًا في تشذيب وصفها. في حذف زيادات تربكه، تُفقده بعضًا من جماله.

أتساءل أحيانًا: هل ما أفكّر فيه ناحية موسيقى موزارت هو ابن خيالي صافيًا أم هو ابن تداخلات لا هرب منها، بين ما كتبته زادي سميث على لسان شخصية روايتها، وما أشعر به، وأفكّر فيه ناحية موزارت؟!

حين تسمع قدّاس موزارت، يُخيّل إليك أنّك تمشي باتِّجاه هاوية لا يمكن أن تراها إلّا حين تصل إلى حافتها.

موتك ينتظرك هناك. وأنت لا تعرف هيئته ولا صوته ولا رائحته. لا تعرف هل هو موت جيّد أم سيّئ. فقط تمشي باتّجاهه.

إرادتك هي آلة كلارينيت، وخطى قدميك مجموعة من آلات الكمان. وكلّما اقتربت من الهاوية، انتابك

إحساس بأنّ أمرًا مُرعِبًا ينتظرك هناك. ومع هذا فأنت تمرُّ بهذا الرعب كنوع من النعمة أو المنحة. مشيك الطويل ما كان له معنى لولا وجود هذه الهاوية في نهايته. تُحدِّق في الهاوية، فتسمع فجأة ضوضاء أثيرية تتهشَّم فوقك. ثمّة جوقة كبيرة. كأنّ هذه الجوقة هي المُضيف السماويّ. هي كلّ شخص أحدث فيك تغييرًا خلال عيشك على هذه الأرض: الأفراد الذين أحبّوك، عائلتك، أعداؤك، والنساء اللاتي بلا اسم أو ملامح ونمن في فراشك، والمرأة التي كنت تظنّ أنّك ستتزوّجها، والمرأة التي تزوّجتها فعلًا.

كان موزارت صادقًا في تأليف هذا القدّاس بطريقة غريبة، حتى صار ثقلًا عليه. ومع الوقت، والمرض والسهر الطويل، والإرهاق والهوس بإنهاء هذا العمل، اكتشف أنّه في الحقيقة كان يؤلف قدّاسه هو. نشيد موته. شعر ببذرة الموت ترتعش في صدره، فسقاها بموسيقاه المعتمة القاتمة. ثمّ أخذت النبتة تنبثق من جذرٍ أسود مُرّ، لكنّه لم يخف. تمدّدت غصون الموت في دمه قابضة على أوردته، لكنّه لم يرتعد. ظلَّ كما هو، يتتبَّع الإيقاعات والنغمات التي كانت تصدح في قلبه، ليملأ بها عمله، حتّى وصل إلى الهاوية، فمات قبل أن يكمل قداسه.

في القدّاس أجزاء مُظلِمة، تضجّ بالحزن في لحظة، وبالثورة في لحظة أخرى. لكنّ ثمّة أجزاءً مليئة بالرهافة: المقطع المسمّى ريكورديرِ، أو "تذكّر". الموسيقى هنا حميمية، رقيقة وذات جمال حادّ، يكاد يقتل. ثمّ إنّ هذا المقطع يمثّل الرؤية الوحيدة في القدّاس عن عالم لم يفسده الألم والحزن؛ لحظات عابرة من الصفاء لا تدوم طويلًا.

ثمّة غموضٌ فاتنٌ في هذا القداس يجعلك مأخوذًا إليه كليًا. إنّه غموض وفتنة الموت مُجسَّدة في هيئة نشيد جنائزي ربّما رغب كلّ من عاصر موزارت في أن تكون هذه المرثية هي نشيد موته.

ترك يونس القلم مُتعرِّقًا رغم البرد. كانت أنفاسه مُتسارِعة. أغلق دفتره. أطفأ الشمعدان. وتمدَّد بعدها في موضع نومه مُحدِّقًا في عتمة الغرفة. عتمة لم يكسرها أيّ ضوء شاحب لنجم أو قمرٍ في سماء لا تزال على حالها، كثيفة الغيم حتى في الليل.

***

في الليلِ، وهي تتراوح في سريرها بين أرقٍ مديدٍ ونعاسٍ مُتخاذِلٍ فكّرت عُلا: "في الصباح، سأعبر الضِفّة إلى يونس".

نتوء رابع

يتداعى فيه الوقت

لكن ما الذي يفعله الموت هنا؟
ما الذي يفعله الموت السكران ذو الدوار الأشدّ،
وهو يرمي بثيابه إلى الأرواح؟

ضوء سماء المكان مُحتجِب وراء غلالات المياه. ضوء السماء هنا غائم، مُغتمّ. أكاد أرى شحوبه من زاوية تمدُّدي هذا.

المكان صامت، أقرب إلى أن يكون معتِمًا في نهاره. ثمّة رجل وفتاة أراهما يهرولان من جهة الضفة الكثيفة الأشجار. يأتيان من ناحية ذيلي تجاه البحر.

أشاهدهما يقتربان من موضع رأسي. يلتقط الرجل أنفاسه لاهثًا، والفتاة مُختبِئة وراءه. رأسها فوق خصره بقليل. أخذ ينظر إليّ طويلًا، في عينيّ.

لم يكن غريبًا عنّي. لم تكن هذه هي المرّة الأولى التي أراه فيه. أئِنُّ: "إنّي أعرفُك".

فيجفل جسده النحيل.

أئِنُّ مرة أخرى: "ثمّة من يفهم أغانيَّ بين الأشجار. ألا يمكن أن تدلّه علي مكاني؟".

فيأخذ خطوات بظهره إلى الوراء. خائفًا مُتلفِّتًا حوله بحثًا عن موضع ليختبئ فيه. لكن لا مخبأ في مكان عارٍ من الأشجار.

هرول باتّجاه البحر. ذعر روحه يلفُّه، أكاد أراه. والفتاة مُمسِكة بيده. خطواتها الخائفة مُنهَكة، مُتأخِّرة عن عدوِه، رغم ركضِها بكلّ ما تستطيع.

عيناي تغيبان. لم أعد قادرًا على الغناء، أو الأنين، أو طلب النجاة، لا مِمَّن هم في الأرض أو مِمَّن في السماء.

عتمة آخذة في الإمساك بالأشياء من حولي. وأنا غير قادر على إبعادها عنّي.

روحي تكاد تغادر جسدي.

أرى بعضًا منّي في مكان آخر لا أتبيّنه.

ليس في إمكاني أن أعرف إلى أيّ جهة أغادر.

لكني أمضي نحو ضبابٍ.

بعد سبعين عامًا من اغتراب في كلّ مكان.

ها أنا أغادر إلى ما لا أعرف.

مُنهكٌ، مُتعب، وعيناي تغيبان.

ها أنا أغادر. ها أنا أحتضَر.

اليوم السابع

أيّتها الأدراج الواهنة التي لن أطأها،
فليرفع المغيب محبرته، والرياح أقلامها

أنينٌ يُكرِّر نفسه مرّة بعد أخرى. وهي قطّة صغيرة، فزعة، عمياء مختبئة بين الأشجار الكهلة.

أنين بنغمات عِدّة مُتباينة، تتكرَّر، تَتَعالى، ثمّ تهدأ. تحيط بها كدائرة، دون أن تعرف من أيّ جهة تأتي.

فتحت عُلا عينيها ببطء. أنفاسها ثقيلة. نبض قلبها عالٍ، تسمعه في دماغها. ظلَّت في سريرها بعدما أفاقت من النوم، مُحدِّقة بشرود في سقف الغرفة.

"عاد الحُلم". قالتها لنفسها بصوت خفيض.

نظرت حولها. كانت في شقتها. عيناها مفتوحتان. كلّ شيء على حاله. ثمّ فجأة صدح أنين الحلم.

"كيف يمكن أن يحدث ذلك؟ أنا يقظة. كيف يظلّ أنين الحلم معي حتى بعد أن أفيق؟!".

***

حين تمطَّت خيوط الضوء مُتعَبة، في سماء هذا الصباح الشتوي، كان يونس والفتاة جاهزين لمغادرة المكتبة.

في مرورهما بالممرّ القصير خارجَين من القاعة الكبرى، نظر يونس مرّة أخيرة إلى لوحة "صباح ما بعد الطوفان" (The Morning after the Deluge).

"كم أودّ أن آخذها معي"، قالها بصوت سمعته الفتاة، بينما هو يتأمَّل تفاصيل اللوحة.

أخذا الطريق نفسه الذي قطعه أمس نحو شاطئ البحر. كان الضباب مُتزنًا كسيّد للمكان. والمخاتلة بين العتمة والضوء على حالها. في كلّ مرّة خرج يونس في طقس كهذا، كان ذهنه يستعيد دون إرادة منه أنّات الكلارينيت في موسيقى landscape in the mist.

ظلّا يسيران.

لا اتّضاح لمعالم الطريق.

لا شيء سوى تلمُّس بلا يقين للخطوات نحو الشاطئ.

وفي خضمّ سيره، قُطعت نغمات الموسيقى الدائرة في رأسه بأنّات غريبة. توقَّف عن السير. ضمّ الفتاة تحت ذراعه. أنصت. توقفت أصوات الأنّات، فعاد السكون. ثمّ جفل، حين عادت بعد لحظات لتصدح من جديد.

"ما هذا؟" سألته.

"لا أعرف!" ردّ مُتردِّدًا.

"أنا خائفة"، قالتها بصوت يوشِك على البكاء.

"سيرتفع الضباب أثناء سيرنا. سنرى الطريق أوضح".

تحرّكا ببطء مُكملين سيرهما. كانا يجفلان للحظة كلّما أتتهما أصوات الأنّات. ثمّ يستجمعان ما بقي من جلَدهما ليستمرّا في السير.

"الصوت يأتي من جهة النهر،" أخبرته.

هزَّ رأسه موافقًا.

- هل سمعتَ شيئًا كهذا من قبل؟

- لا. لكن لا أعرف لِمَ لا يبدو غريبًا عنّي، أو مخيفًا لي.

أكملا سيرهما تجاه الشاطئ وهما يتلفتان حولهما من حين لآخر. تجاوزا موضع الكوخ. كانت الأنّات تتعالى مع اقترابهما من ضفة النهر. أخذت فترات السكون بين كلّ أنّة وأخرى تطول أكثر. مشيا حتّى وصلا إلى ضفة النهر، في موضع قريب من شاطئ البحر.

رأيا حوتًا ضخمًا، يتمدَّد في مجرى النهر. رأسه تجاه البحر، وذيله تجاه الخزّان.

تشبّثت الفتاة بخصر يونس، "ما هذا؟" سألته وهي تختبئ وراء ظهره.

"حوت"، ابتلع ريقه ثمّ أكمل "حوت يُحتضَر".

تأمَّل المشهد. كانت المياه أعلى قليلًا من صباح أمس. ربّما تصل إلى ركبتيه قرب موضعه عند شاطئ البحر. فكّر أنّ مدًّا عاليًا

ربّما هو ما حمل جسد الحوت إلى مجرى النهر.

أمسك بيد الفتاة وسارا على الحافة العشبية الرطبة للضفة، باتجاه الحوت، يملأهما خوف من مهابة الجسد وإن كان يُحتضر. كان سيرهما مأخوذًا بالقلق من المشهد. فهرولا، ثمّ أصبحت الهرولة ركضًا حتى توقفا في موضع كانت فيه عينا يونس على خط مستقيم وهو ينظر إلى عين الحوت. كانت نصف مفتوحة، نصف مغمضة وكأنّه ناعس.

"هل سيموت؟" سألته الفتاة.

وقبل أن يجيبها، صدحت أنّة جديدة من الحوت.

- يبدو أنّه في احتضاره الأخير.

- ألا يمكننا إخراجه من هنا؟

- يحتاج إلى أن يكون هناك. قالها وهو يشير نحو الخليج.

حوَّل رأسه عن النظر إلى عيني الحوت، ناظرًا إلى عيني الفتاة، "سوف يموت، ما دام بعيدًا عن مياه البحر العميقة"، فبكتْ.

تراجع إلى الوراء ممسكًا بيدها. أخذ يتنقَّل بعينيه على الجسد الهائل، فتحة النفث، والنتوءات الظاهرة قرب الفم. حدَّق في عين الحوت لبرهة بدت طويلة. استعاد فيها سلسلة أحلامه كلها، واحدًا تلو الآخر. كان كلُّه حيرة. أيحلم الآن أم أن واقعه في هذه اللحظة يتقاطع مع حلمه. شرد في عين الحوت. فكَّر أنّه يبدو كأنّه واقف أمام حُلمه، أمام نفسه في حُلمه. عاد إليه سؤال الفتاة "ألا يُمكِننا إخراجه من هُنا؟".

أفاقه أنين الحوت. انتبه إلى يد الفتاة المُتشبِّثة بخصره وهي تهزّه. سارا باتّجاه البحر. كانا يتلفتان ناحية الحوت من حين إلى آخر. ظلَّت تبكي حتى علا نشيجها. حين وصلا إلى الشاطئ، وقفا ينظران إلى الحوت، سامِعَين أنّاته تأتيهما واحدة بعد الأخرى قاطعة صمت المكان.

على الضفة الأخرى، كان البعض قد بدأوا بالتجمع في الطريق الموازي للنهر ليروا ما يحدث عن قرب. والبعض الآخر يراقب المشهد من نوافذ البنايات.

شرد يونس لهنيهة، مستعيدًا كلّ ما حدث خلال الأيّام الماضية. نظر إلى الحوت من جديد. أخرج بعدها القلم الحبر من حقيبته. نزل مسندًا ركبتيه على الأرض، "شمِّري عن ذراعكِ اليسرى".

دوَّن عنوان عُلا، والفتاة تتنقّل بنظرها في خوف بين ذراعها ووجه يونس وجه الحوت.

"ستعبرين من هنا، إلى الضفة الأخرى. ستسيرين في خط مستقيم حتى تصلي إلى الناحية الأخرى. ستسألين بعدها عن هذا العنوان، تسكنه امرأة اسمها عُلا. لن تضيعي. ليس صعبًا الوصول إلى البناية التي تقطنها".

اشتدَّ بكاء الفتاة: "لماذا تتركني؟ لا أستطيع العبور وحدي. لا أعرف أحدًا هناك".

ضمّها إليه، "اهدئي، أرجوكِ. الأمر ليس صعبًا أبدًا. انظري

إليّ. راقبيني جيدًا،" مشى يونس خطوات في مياه البحر المُنخفِضة كأنّه متجهٌ نحو الضفة الأخرى. ثمّ عاد إليها من جديد.

"أترين؟ المياه لم تتجاوز رُكبتيّ".

ظلَّت تبكي، "لماذا لن تعبر معي؟".

حاول طمأنتها، "لا تخافي. هي أفضل من سيعتني بكِ".

نظر إليها بجدّية مُكمِلًا: "لن تكوني في مأمن معي. ثمّة من يطاردني".

"من هم؟".

"يمكثون بين الأشجار. لا تستطيعين البقاء معي. ولا أستطيع أن أعبر إلى الضفة الأخرى. ربّما يتبعونني. حين أتأكد من أنّهم فقدوا أثري سأعود إليكِ".

أعطاها نصف ما بقي معهما من طعام ومياه. كانت لا تزال تبكي. قرّبها منه: "سأعود. أمّا الآن فستعبرين إلى الجهة الأخرى. ستجدينني هنا؛ لن أغادر مكاني حتّى أتأكّد من وصولكِ. شاطئ البحر هو المسافة الأطول، لكنّه الأكثر أمنًا".

***

اعتدلت عُلا من استلقائها. غيَّرت ملابسها. أتتها الأنّات من جديد أثناء صعودها مسرعة إلى السطح. ومن أعلى البناية، رأت

جسد الحوت مُمدَّدًا في المجرى الضحل للنهر.

خفق قلبها بقوّة. جفلت حين عاد الحوت إلى الأنين أمام عينيها. فكّرت: "إنّه الصوت الذي كان يأتيني في الحُلم!".

كانت الأعين المُراقبة للمشهد من نوافذ منازلها تتزايد. القليل من الرجال كانوا واقفين في الطريق الموازي للنهر قريبين من المشهد، والعربات القليلة التي كانت تسير في هذا الوقت من اليوم بدت كأنّها أُصيبت بالشلل.

الطقس بارد. الغيوم كثيفة. انتابت عُلا رعشات مُتقطِّعة أخذت تتزايد؛ انسحبت من مكانها عائدة إلى شقتها. تدثَّرت بأكثر من طبقة من الملابس ثمّ نزلت إلى الشارع. عبرت الطريق إلى الرصيف الموازي للنهر. تباطأت خطواتها وهي تقترب أكثر من مشهد الحوت، مُتمهِّلة في سيرها وهي تقطع المسافة نحو الجسد الهائل في تمدُّده. اقتربت من ذيله الرمادي. أكملت سيرها ببطء مُتأمِّلة بعينين داهشتين تفاصيل جسده. رأت بقعًا حمراء تتناثر في مواضع متفرّقة من ظهره الرمادي الأسود، يخرج منها بخار بدا ظاهرًا على نحو أوضح مع برودة الطقس.

توقَّفت عن السير حين أصبحت عند موضع من الرصيف مقابل لمنتصف جسده. تأمَّلت زعنفته الزرقاء القاتمة ذات الخطوط البيضاء الرقيقة: "زعنفته ضعف طولي تقريبًا!"، هجست لنفسها ذاهلة.

فزعت حين سمعت عن قرب أنّة جديدة من أنّات الحوت.

جاءت نبضات قلبها قويّة كأنّها تكاد تُمزِّق صدرها. أكملت سيرها بموازاة الحوت، على نحو أبطأ، بخطوات غير متزنة. توقفت بين لحظة وأخرى حتى وصلت إلى رأس الحوت. كانت تظهر فيه نتوءات بارزة متفرّقة من فتحة النفث في ظهره إلى ما فوق شفته العليا. كان جفن عينه نصف مغمض، نصف مفتوح. استغربت أنّ الجفن يمتلئ بخطوط وكسرات تُشبه تلك التي عند رجلٍ كهل.

شعرتْ للحظة بأنّ الحوت وجَّه عينه ناحيتها. أغمض جفنه للحظة ثمّ عاد إلى وضعية نصف الإغماض. أطلق أنّة أخرى أطول من التي سبقتها، فتراجعت عُلا وعيناها تمرّان على جسده من الرأس حتى الذيل الذي كان بعيدًا حدّ أنّها لم تستطع رؤية تفاصيله بوضوح.

نظرت حولها. كانت الأشياء غائمة. بدت الأرض غير ثابتة من تحتها. أتاها دوار. حاولت أن تتنفَّس مرّة بعد أخرى. وببطء قطعت الطريق عائدة إلى بنايتها.

ارتشفت بعضًا ممّا بقي لديها من ماء. استلقت على السرير بملابسها. غطَّت نفسها بثلاثة أغطية ثقيلة، من أطراف أنامل قدميها حتى رأسها. تحت الغطاء، وهي مغمضة عينيها، بين خفق قلبها الصادح وأنفاسها القصيرة المُتتالية، كان دماغها يسترجع تفاصيل جسد الحوت. نعست وروحها مُنهَكة. وفي نومها، ظلَّت عين الحوت التي أغمضت للحظة طويلة، ثمّ عادت لما

كانت عليه من نصف إغماض، عالقة في رأسها دون أن تتبدَّد إلّا حين سمعت طرقًا على باب شقتها.

***

هرول يونس تجاه المرسى القديم، بعدما رأى الفتاة قد وصلت إلى الضفة الأخرى. أخذ يشتّت ذهنه عن فكرة العودة إليها والذهاب معها إلى عُلا. ظلَّت نظرة الحوت نصف المغمضة، نصف المفتوحة، بالجفن المنسدل قليلًا غير المغلق على وجه الكمال، عالقة في رأسه ثابتة كصورة لا تغادره أينما اتّجه بعينيه.

فكَّ حبل القارب الذي لا يزال في الإمكان استخدامه. كانت المرّة الأولى التي سيبحر فيها. لم يكن يعرف كيف يقود قاربًا في المياه. لم يكن يعرف كيف يضبطه مع اتّجاه الريح. لكنّه في كلّ مرّة يأخذ خطوة في ذلك المسار، يجد الأشياء تتكشَّف له. يجد نفسه يفعلها وكأنّه اعتاد ممارستها. كأنّه طوال حياته كان صيّادًا يُبحر بالقوارب.

وضع في القارب ما بقي لديه من طعام ومياه. كان يعرف أنّه لن يكفيه لأكثر من يومين. ثمّ بدأ يجرُّ القارب ليخرجه من المياه الضحلة على شاطئ البحر حيث لا يزيد ارتفاعها عن ردفته. انتبه حينها إلى حركة خافتة أسفل شجرة كستناء عتيقة. دقق بنظره.

كانت قطة صغيرة، لونها مدرَّج بين الأبيض والبرتقالي.

ترك حبل القارب. اقترب منها. كانت صغيرة للغاية. مُبلَّلة، تهزُّ رأسها وكأنّها ترتعش، ناظرة لأسفل.

"عمرها ليس أكثر من ثلاثة أشهر" هجس.

نظر حوله للحظة. كان المكان ساكنًا إلّا من صوت بعيد لحركة خمَّن أنّها حوافها تمتدّ إليه من الضفة الأخرى. قرَّب يده من القطة. مرَّر كفّه على رأسها. ظلّت حركتها المهتزة كما هي. وضع يده أسفل فكّها الصغير، مُحاولًا أن يرفع رأسها لأعلى. قاومته، لكنّه تمكّن من رفع وجهها قليلًا.

كانت القطة عمياء. كان محجرا عينيها فارغين.

سرت قشعريرة في جسده. ابتلع ريقه. عاد إليه مشهد الحوت وهو ينظر إليه. أغمض عينيه للحظة. وحين فتحهما، كانت القطة أمامه، لا تزال على حالها. حملها من موضع التصاقها بجذع شجرة الكستناء. وضعها في القارب. ثمّ أخذ يشدّه ناحية مياه الخليج.

نظر في الاتّجاهات كلها من حوله، ضفة الجزيرة، ضفة المدينة، الحوت المُمدَّد في مجرى النهر، مُستنقعات الملح القابعة على الجهة الشرقية من الجزيرة، والشاطئ المُمتدّ بعرض المدينة كلّها، المنحسرة عنه المياه، مُجبِرة يونس على أن يجرّ القارب لخمسين مترًا في الجسد المالح للخليج حتى يمكنه الإبحار.

قلقًا، مُتعرِّقًا برغم البرد، فكَّر هاجسًا: "كيف أخرج من هنا؟".

***

"توقف الحوت عن الأنين"، فكَّرت عُلا.

كانت جالسة في غرفتها، إلى أريكة بجوار سريرها، تنظر عبر النافذة إلى السماء المُتكاثفة الغيوم. حوَّلت عينيها للحظات تجاه الفتاة المُستلقية على سريرها، مُتدثِّرة بأغطية النوم. فوجدتها تنظر هي الأخرى إلى السماء.

بدت الفتاة مُتعبة، شاحبة. جهَّزت عُلا حساءً دافئًا من أجلها. بعدما شربته، وضعت بجوارها طبقًا فيه بضع ثمرات من الفاكهة، كانت آخر ما بقي لديها في البيت.

عرفت منها كلّ ما دار بينها وبين يونس في الأيّام السابقة، منذ عثر عليها حتّى لحظة عبورها إلى ضفة المدينة. لم تفهم لِمَ تصرّف هكذا. لِمَ تركها تعبر وحدها.

لم تكن الفتاة تعرف شيئًا عمّا كان يحدث في الجزيرة، باستثناء الرجال الذين حاموا حول المكتبة، والآخرين الذين انبعثت روائحهم من قبو حفظ اللحوم.

بدا تصرّف يونس مُريبًا. وما بدا غريبًا إلى حدّ مُفزِع حديث الفتاة عن أنّها سمعته في الليل وهو يُحادِث نفسه بصوت خافت

مُكرّرًا: "لاكريموزا... لاكريموزا!".

أخذت فكرة العبور إلى الجزيرة تزداد زخمًا في رأسها، "لن أنتظر قدومه أكثر من الليلة"، فكّرت.

شردت مرّة أخرى بين الغيوم المتكاثفة، وضوء النهار الرمادي الأزرق الباهت، في سقوطه من النافذة على وجه الفتاة. أصوات الحركة في الشوارع تكاد تكون مُنعدمة. لا سيّارات، لا أحاديث صاخبة أو هادئة بين الرياح الباردة والأشجار. أغلقت النوافذ. ثقل جفناها. تسلَّل إلى جسدها النعاس وهي في كرسيّها. غفت وأفاقت أكثر من مرّة. وفي إحدى المرّات، لمحت بعينين متعبتين الشفق آخذًا في الإمساك بجنبات الأفق.

نظرت إلى الفتاة. كانت تنام بعينين غير مكتملتي الانغلاق. يتحرَّك جفناها في نومها كأنّها تحلُم. شعرت بخفق قلبها يصدح في أذنيها. وبعد هنيهة أتاها صوت انفجار هزَّ معه إطار نافذتها الزجاجية. فزعت. وانتفضت الفتاة من نومها مذعورة.

صعدتا إلى السطح مسرعتين. كان غبار ركام جسد الخزان لا يزال عالقًا في الهواء، وصوت المياه يتدفق بقوّة في مجرى النهرِ، مُغرِقًا معه الطريق الموازي من ناحية المدينة، والشوارع، ومداخل العمارات، متخطيًا أشجار البتولا من ناحية الجزيرة.

حاولت عُلا الإلمام بتفاصيل المشهد كله. النوافذ تُفتح من جديد، الأعين والأوجه تشرئب فزِعة محاولة أن تعرف ما يحدث.

في الوقت نفسه، كانت عينا الفتاة مثبَّتتين على الحوت. المياه تعلو من حوله جارفة إيّاه ناحية الشاطئ. نزعه اندفاع الماء من ركوده في القاع الطيني للنهر، آخذًا إيّاه باتجاه الشاطئ، حيث كان المدّ يعود بعد انحساره المأزوم. ظلّت عينا الفتاة تتبعان جسد الحوت المأخوذ بتيّار النهر إلى جهة البحر. ظلّت علا والفتاة تراقبان المشهد. وحين تكاثفت العتمة، وعاد الصمت إلى المكان، نزلتا منهكَتين إلى الشقة.

استلقت الفتاة في السرير. أغلقت عُلا النوافذ كلّها ثمّ دثَّرت الفتاة بغطاء فوق الآخر، مُنسلّة إلى جوارها. ظلت الفتاة مُمسِكة بيد عُلا، قابضة عليها بقوّة بدت كأنّها أكبر ممّا تملكه فتاة صغيرة متعبة. أخذت أنفاسها تهدأ بمرور الوقت. شعرت عُلا بذلك رغم أنّها لم تكن تراها وسط عتمة كاملة كانت تلفُّهما، مُلتهِمة المكان.

في نومها، رأت الفتاة نفسها، وقت الغروب، مُمدَّدة في المجرى الضحل للنهر. رأت أعينًا تتلصَّص عليها من بين أشجار غابة الجزيرة؛ أعينًا بلمعات خافتة، تتزايد أعدادها؛ فتسمعُ بيقين أكبر، أصوات أنفاس مُترقِّبة، كلَّما ذهب الضوء، كلَّما تراكمت العتمة.

إشارة حتمية

المقاطع الشعرية المُستخدمة كاستهلالات للفصول أو بداخلها هي إمّا من الأعمال الشعرية لسليم بركات، أو مُستلهَمة مِنها.

شُكر لا مفرّ منه

تطوَّرت الرواية أثناء مراحل العمل عليها بفضل قراءات وتعليقات الأصدقاء: جبّور الدويهي، ممدوح عزام، الحبيب السالمي، وفاء شعراني، وليد الخشاب، أنطوان جوكي، عبد السلام باشا، محمد آيت حنّا، نور عسلية، عبد الله ناصر، أحمد عايد، محمد فاروق، أنغام عبد الله، أحمد عادل حوزه، صلاح سامح، طارق أبي سمرا، آية جلبي.

لم يكن لهذا العمل أن يظهر على ما هو عليه لولا الدعم الاستثنائي من إنعام كجه جي وطه برعد.

أمّا فاتن جباعي فلا شيء يُمكن أن يُقال أمام عنايتها الشديدة الخصوصية بالنصِّ حتّى اللحظات الأخيرة قبل إرساله للناشر.

برنامج "آفاق لكتابة الرواية"

أطلق الصندوق العربي للثقافة والفنون برنامج "آفاق لكتابة الرواية" في عام ٢٠١٤، ساعياً لدعم مواهب روائية شابة ومواكبتها وتمكين قدراتها الروائية والإبداعية. امتدّ البرنامج على ثلاث دورات، مدة كل دورة سنة ونصف، وتتضمّن كل منها ثلاث ورش عمل مكثفة. أقيمت الدورة الأولى (٢٠١٤) بالشراكة مع محترف نجوى بركات، بينما أشرف الروائي اللبناني جبّور الدويهي على الدورتين الثانية (٢٠١٥) والثالثة (٢٠١٦).

اليوم، وبعد انتهاء البرنامج، يمكن القول إنّ هذه التجربة كانت أكثر عمقاً وتأثيراً ممّا توقّعنا، إذ لا يمكن وصف أثر هذه اللقاءات المكثفة، بما حملته من نقاشات وتبادل آراء بين الكتّاب والمدرّبين، على أفكار الروائيين المشاركين ومشاريعهم. كما لا يمكن تثمين الرابط الإنساني الحميم الذي وُلد وتوثّق بين أفراد لم يلتقوا من قبل، فوجدوا أنفسهم يتشاركون الأحلام والأسرار، الهموم والتطلّعات.

يسرّ "آفاق" أن تكون جزءاً من هذه التجربة الفريدة، وأن تسهم بإغناء المكتبة العربية بخمس وعشرين رواية متميّزة من تسعة بلدان عربية، لكلٍّ منها أسلوبها وصوتها الفريد. بعضها كان أقرب إلى السرد الشخصي، بينما عالجت أخرى مواضيع ذات أبعاد اجتماعية وسياسية، ولكن، على رغم العوالم الخاصة لكل منها، لم تبتعد عن هموم العالم العربي وتساؤلات شبابه وطموحاته التي نقلها كتّاب هذا البرنامج بأسلوب مشوّق وراقٍ.

مفترقاً عن حبيبته علا يصل يونس إلى جزيرة معزولة لا يدخلها غير قاطنيها. الجزيرة باتت وجهة الحكّام الذين نسفوا كلّ آثار الفقراء فيها، محوّلين إيّاها إلى نموذج عن مدينة معاصرة تفرض ثقافة الاستهلاك سطوتها على كلّ شيء فيها.

من بين جدران غرفته الصغيرة المحاذية للمكتبة حيث يعمل، يراقب يونس موت المدينة البطيء، متطلّعاً إلى الجانب الآخر حيث علا تتطلّع إليه وتشهد الموت أيضاً. حوتٌ أعمى يرافق مناماته فيما ترافق قطّة عمياء مناماتها ليكون الأنين وحده صوت المدينة التي تبلغ موتها القاسي، وربّما تزهر في أرضها بذور حياة جديدة.

ميثولوجيا معاصرة تقارب الواقع بلغة شيّقة، نافذةً إلى أعماقه لتقرأ الاحتمالات داخل ما هو كائن.

محمود حسني كاتب ومترجم مصري.

BIC
NI

AFAC آفاق
www.arabculturefund.org

DAR AL SAQI
دار الساقي
www.daralsaqi.com

ISBN 978-614-03-2054-3
9 786140 320543 >